عزيز نسين

العرض الأخير



ترجمة: جمال دورمش

العرض الأخير

دار الحصاد للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ برامكة
هـ ، فاكس : ٢١٢٦٣٢٦
صندوق. بريد : ٤٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٦

عزيز نيسين

العرض الأخير

ترجمة جمال دورمش

لماذا أحب عزيز نسين

بقلم الأديب والكاتب نصر الدين البحرة

عندما عرفت القاص الفرنسي «غي دو موباسان» في الخمسينات الأولى، كان ذلك عندي بمثابة اكتشاف. ولم تكن في ذلك الزمن مجموعة كاملة من قصصه قد ترجمت إلى العربية ونشرت في كتاب، ولذلك فإنني رحت أبحث عنه وأتابعه من خلال ماتنشر الصحف، هنا وهناك من قصصه المترجمة.

انضم إلى قائمة الكتاب الذين أحب بعد ذلك «أنطون تشيخوف» والمسرحي الفرنسي «موليير» والروائي الأمريكي «أرنست همنغواي» والقاص الأمريكي الأرمني «وليم ساروريان».

.. وأقول الآن بكل بساطة، إن القاص التركي «عزيز نسين» وهو الآخر، كان اكتشافاً جميلاً.. فرحت أفتش عن أي مادة يكتبها، مما يترجم عنه.

لقد عرفت «عزيز نسين» للمرة الأولى في قصة قصيرة نشرتها صحيفة تصدر في مصر، منذ سنوات طويلة، غير أن صدور قصصه

وبعض رواياته في كتب، تأخر حتى الأعوام القليلة الماضية.

ما الذي أحببت عند عزيز نسين؟

إنه العنصر نفسه الذي يلفت النظر عند الكتاب الكبار، سواء كانوا عرباً أم أجانب. وكنت أؤمن دائماً أن الكاتب إنما يكتب للناس، لا.. لنفسه، فينبغي له أن يتذكر هذا الأمر، وهو يخط أول سطر في عمله الأدبي، على أن يبقى القراء في ذهنه وقلبه حتى آخر سطر من مخطوطته. وهذه هي أهمية السلاسة والطلاوة والتشويق في القص، وهي نفسها العناصر التي توفر للقارئ متعة القراءة وبهجتها، وتمنحه ذلك الضوء الذي ينير روحه.

إن مادة الكتابة القصصية الجوهرية هي الإنسان، وهو الذي كانت معرفته، والاطلاع على دخائله وأسرار أعماقه، همّ الأدباء الأول، منذ أن خط البشر أول سطر على الطين.. وهكذا هو الأمر بدءاً من«غلغامش» والمؤلف المصري المجهول «لشكوى الفلاح الفصيح« وسوفكليس و«أوديب» مروراً بالجاحظ والتوحيدي والمتنبي.. وانتهاء بموليير وشكسبير ... وغوته.. والأدباء العظام في القرنين التاسع عشر والعشرين.

.. عزيز نسين، في كل واحدة من قصصه، يقدم لنا كشفاً إنسانياً جديداً ويقدم ضوءاً باهراً، ينير بعض جوانب القبو الإنساني المعتم.. هـهنا حيث تحتشد الأسرار البشرية وتتخبأ.

إن التجربة التي مر بها بهاء بك في «مسابقة صب الماء» ليست وقفاً عليه وحده، فلا بد أن الكثيرين ممن حاولوا أن يكسروا حدود طبقتهم قد عرفوها. ولاشك أن أناساً كثيرين أحبّوا صورة وتعلقوا بها.. وكانت في الواقع أمثولة عن نموذج في ذهنهم، مثلما فعل بطل قصة «وفاة مارتا توره».. لقد كان في حاجة ماسة ـ في

وحدته ووحشته إلى «صورة» تؤنس تلك الظلمات.. لكنه دفع ثمنها غالياً.

وقد عرفت أنا شخصياً في كثير من محطات حياتي أشخاصاً أحبوا أن يقيموا في السجن.. لا لأنهم يكرهون الحرية، بل.. لأنهم محرومون من مكان يأوون إليه كما هو الحال في النماذج التي تعرضها قصة «رجل بلا هوية».

وتبدو قصة «النافذة المفتوحة صوب الغرب» أشبه بنكتة أو نادرة، تلخص عدداً كبيراً من النماذج البشرية «الكبيرة» فاقدة الموهبة، التي لاتتقن شيئاً سوى الصعود على أكتاف الآخرين. ولكن عزيز نسين خلع عنها الثياب وعراها.. من الداخل وفضحها.. وأخرج إلى العلن ضحالتها المخيفة.

ويغلب عندي أن تكون قصة «بيتنا» درساً قاسياً لمن يفرطون بوطنهم، جشعاً وطمعاً، فيفقدونه ولايحصلون على المال...

والرجل السافل الذي صوّره الكاتب العظيم في «كم هو سافل» موجود معروف في الجهات الأربع.. هذا الإنسان الذي لاقضية في حياته سوى جمع المال.. وهو في سبيل ذلك يدوس القيم، ولاقيم عنده، وينكث بالوعود، ولا وعود لديه..

وبطل قصة الفهقة، الذي يخسر كل شيء، حتى الوظيفة والزوجة وهناءة العيش بسبب هذه الفهقة، نسميه نحن: المنحوس. أما عزيز نسين فإنه قدمه في الإطار الإنساني الحقيقي.

إن عزيز نسين يتجول بين نماذجه القصصية، بيسر عجيب. وكما هو الأمر عند «تشيخوف» فإنه يصنع قصة من نسيج سلوكي قد لايكون كافياً كي يلفت انتباه أحد.. وربما يكون ذلك في الأصل خبراً سمعه في الحي أو السوق، من هذا الجار أو ذاك البائع.

وربما يكون خبراً قرأه في صحيفة. وقد يكون أيضاً حادثة مما عرفه أو مر به في حياته العاصفة الصاخبة التي لم تعرف استقراراً مقبولاً إلا في السنوات الأخيرة، فقد دخل السجن أربع مرات على الأقل. ولم يحصل على جواز سفر إلا بعد أن بلغ الخمسين أو يزيد.

وفيما هو خريج الأكاديمية الحربية في أنقرة، وأكاديمية الفنون الجميلة في استنبول فإنه اضطر ذات يوم أن يعمل موزعاً للصحف.

هي إذن التجربة الحياتية العريضة. إنها ليست عريضة، ذاك أنها واسعة وعميقة، ويمكن أن تسمى أيضاً، في جانب آخر من الموشور الرائع الذي يشكله أدب نسين: التجربة الشعبية. فما من أحد في تركيا يمكن أن يتغلغل في أعماق النفوس، ويعرف أسرار ودوافعه.. مثل هذا الكاتب الذي ظلّ يحب الحياة والناس حتى آخر لحظة في حياته.. كان يعرف أن قلبه ألواني سيقول له بعد قليل أواخر عام ١٩٩٥: وداعاً... فقرر أن يسبقه في وداع الناس والمرح والحب.. والحياة والبحر.

.. قد ينسى القارئ عناوين قصص عزيز نسين. قد ينسى أحداثها ووقائعها. قد تتسرب من الذاكرة بعض النماذج البشرية.. لكن خفة ظل نسين وبراعته المذهلة في القص، والأخذ بيد القارئ، في دروب مدهشة.. لايمكن أن تنسى

١٩٩٦/١/١٥

مسابقة صب الماء

استطاع معتمد الرواتب معرفة ما يعانيه بهاء بك من ضائقة مالية ، وأنه يريد أن يقول شيئاً ما لكنه لا يستطيع الإفصاح . عشرون عاماً أمضاها في هذه المؤسسة ـ طبعاً ليست فترة قصيرة ـ هادئ ، ورزين ، لم تسمع منه طيلة تلك السنوات أية عبارة شائنة حتى أنه كان يغادر أي مجلس تطلق فيه ثرثرات أو ترهات وهذا ما جعل بينه وبين أصدقائه مسافة احترام وتقدير ، فهو نادراً ما يضحك .

بهاء بك رجل شريف لا يقبل الرشوة ولا حتى الهدايا ، وما يثير الإعجاب ، أنه الموظف الوحيد الذي لم يحصل على سلفة إطلاقاً ، بعكس جميع الموظفين الذين يتقدمون بطلب الحصول على سلفة قبل سداد القسط الأخير من السلفة السابقة .

لهذا السبب استطاع معتمد الرواتب أن يتكهن بأن لدى بهاء بك ما يقلقه ، ويرغب بالإفصاح عنه ، إلا أنه عاجز عن ذلك . حاول بهاء بك أن يقوم ببعض الحركات التي قد تساعده في الدخول في الموضوع الذي أتى من أجله . لذلك راح يسعل تارة ، وتارة أخرى

يطقطق بأصابع يده أو يبدل موضع قدميه ، لكن ، عبثاً ، فهذه المرة الأولى التي يجلس فيها في غرفة معتمد الرواتب كل هذا الوقت .

استجمع بقايا شجاعته ، ونهض واقفاً ليقترب من طاولة معتمد الرواتب ، منحنياً بجسده ليهمس في أذنه قائلاً :

- سلفة ! !

توقف قليلاً ليبتلع ريقه الجاف عله يستطيع استكمال ما بدأ به

- هل أستطيع الحصول على سلفة أيها السيد المعتمد ؟ ؟

أخفى معتمد الرواتب ضحكته ، بخبث ودهاء ، كيف لا وهو يصرف العديد من السلف للموظفين .

كان بهاء بك يحاول أن يعطي على تصرفه مسحة من الاحترام والوقار كي يخفي تلاطم محيطات العالم في داخله .

- مع الأسف ، مع الأسف يا بهاء بك فالاعتماد غير متوفر لهذا البند ولولا ذلك كان طلبك مستجاباً

قالها المعتمد وهو يتظاهر بأنه جاد في إجابته . ماذا يفعل بهاء بك بعدما سمع ما سمع ، أيعود أدراجه أم يبتلع الإهانة ويتابع جلوسه ؟ ؟ . . تردد كثيراً ومن ثم جلس لثوان معدودات ليقف وليجلس ثانية ويحرك أصابعه وكأنه يعزف ترمبيتاً . أما المحاسب فقد كان يتحّرق ليتعّرف على السبب الذي دفع هذا الرجل الشريف لطلب السلفه ؟ ؟ ! !

- خيراً إنشاء الله ، لماذا السلفة ؟

راح بهاء بك يحدث نفسه : «بما أنه ليست لديه نقود ، فلماذا هذا السؤال ؟ ! ! . . لكن هل يجيب على سؤاله ؟ . . وهل سيعطيه السلفة فيما لو أخبره عن سبب ذلك ؟ . .

أجاب :

ـ لأنني . . أحتاج و . . تضايقت قليلاً . .

ـ لكن لم يمضِ على قبض الراتب أكثر من يومين . . أم ستزوج أحدهم . . هل ستزوج الفتاة ؟ . .

ـ لا . . ابنتي ما تزال صغيرة . .

ابنته هذه التي ما تزال صغيرة تبلغ السادسة والعشرين من العمر . . .

ولكي يدفعه المحاسب إلى الحديث حاول استفزازه قائلاً :

ـ ازدادت الظروف المعيشية صعوبة . . فأنا لم أستطع سداد الديون التي تراكمت علي لدى البقال الشهر الماضي . . والله . . لم أستطع ذلك . .

ـ لا . . لا أستدين من تاجر . .

نعم فهو لا يستدين من أحد . . ولهذا السبب فإن المحاسب يتميز غيظاً . . حتى أنه لم يكن لديه حساب عند «القهوجي» . . فإنه يدفع ثمن فنجان القهوة قبل وضعه أمامه . .

ـ آمل ألا يكون أحدكم مريضاً ! . .

ـ الحمد لله . . لا أحد يشكو ذلك . .

معتمد الرواتب يتّحرق لمعرفة السبب . . لذلك كان يحادث نفسه قائلاً «ولك يا ابن الكلب ! ! بما انك لا تشكو من شيء ، فلم السلفة ؟»

ـ أم أن زوجتك ستسافر إلى مكان ما ؟ . .

ـ لا . .

معتمد الرواتب هذا كان يعرف تماماً أن بهاء بك يسن موس الحلاقة بالكأس مرات عديدة أثناء حلاقة شعر لحيته . .

حتى الحذاء . . فهو ينظفه ويطليه بنفسه . . إنه لا شك شخص مدبر.

ـ كل إنسان ، يواجه بعض الصعوبات ـ

يجب على بهاء بك إما الذهاب ، أو الجلوس والإفصاح عن سبب طلب السلفة ، وبذلك يحصل على ما يريد . خصوصاً أن الموافقة أو عدمها خاضعة لرأي المحاسب ، لهذا بدأ بحديثه قائلاً :

ـ يا سيدي مصيبة حلت بنا !!

ـ له له له له ! ! ، أبعد الله عنكم كل مكروه ! !

قالها المحاسب بشيء من الفرح الماكر ..

ـ حاول أحد أصدقائي الترفيه عنا ..

هل يمزح بهاء بك فيما يقول ؟ لا إنه جدي للغاية .

ـ أول أمس . عندما كنت عائداً إلى منزلي سمعت صوت زمور سيارة .

قلت . . لأفسح المجال للمرور . .

غير أنه لم يتوقف . . غضبت . . التفت إلى مصدر الصوت . . وإذ بأحدهم يلوح بيده من نافذة سيارة زرقاء . . مخرجاً رأسه . . وعندما أمسك بسترتي وشدني إلى داخل السيارة . . عرفته فهو «صديق قديم» جهاد . . صديق الدراسة منذ ثلاثين عاماً لم نلتقِ . . هو الآن رجل ثري . . بقي سنوات طويلة ـ كما علمت فيما بعد ـ في أوربا وأمريكا . . أما الآن فهو يعمل بالتجارة والتعهدات . . . .

اتجهنا إلى المنزل . . لكنه ما انفك يسمعني عبارات الشفقة عن وضعي المعيشي» كيف تعيش في هذه الظروف السيئة آه . . كيف ؟!

خجلت كثيراً أمام أهل بيتي . . لذا كنت أقول له «الحمد لله وضعي جيد» . . إلا أنه لم يقتنع . .

ـ هل تذهب إلى السينما ! إلى المسرح !! هل تذهب إلى الكازينو ؟ . . أما زوجتي فكانت تنظر إلى ابنتي وتقول :

واه ، واه . . يا أخي جهاد إننا راضون وقانعون بوضعنا . . على كل لسنا راغبين بالتسلية خارج المنزل . . قد نذهب أحياناً إلى دار السينما . . ولكن ليس دائماً لأنه ليس مهماً لهذه الدرجة . . . إلا أنه ما فتئ يكرر عبارات الشفقة «لم أكن أتوقع أن أجدك بهذه الحال السيئة . . مطلقاً» . . . ومن ثم أصر بعناد على خروجنا من المنزل بقصد التسلية . . وحاولت الالتفاف على الموضوع . . والتهرب من ذلك لكن عبثاً . .

ـ هيا اخرجوا من المنزل . . وانظروا إلى الدنيا . . ألست صديقك ؟ . .

ولم يكن أمامنا بعد هذا الإصرار سوى الرضوخ . . حسناً . .

. . عندما جاء مساء اليوم التالي . . حضر جهاد ليأخذنا بسيارته ، فغضبت زوجتي ، وجرحت كرامة ابنتي من هذا الموقف . . لذا فقد أصرتا كلتيهما على تسديد كل المصاريف . . «ادفع كل المصاريف ، ولا تدعه يدفع أي شيء» . . نعم لقد قبضت راتبي . . ولم أدفع أجرة البيت بعد . .

. . حضر جهاد وبرفقته سائقه الخاص . . استقلينا السيارة واتجهنا إلى «بوغاز» . . شربنا الشاي في «أمير جاند» . . وقبل أن أفتح محفظتي كان جهاد قد مد يده بورقتين ذات العشرة

للنادل . . ماذا عساي أن أفعل ؟ زوجتي تلكزني وتقول لي «هيا» . . ماذا يا زوجتي ؟ ـ لا تبق تحت واحدة . .

هيا إفعل أي شيء . . ولك ماذا سأفعل . . لقد أعطى الرجل عشرين ليرة دون اكتراث ؟ ـ هيه ـ وزوجتي ستثقب جانبي وهي تلكزني وتقول هيا . . . .

أخرجت من جيبي ليرة واحدة . . وبصوت مرتفع قلت : سأعطيه بخشيشاً . . عليّ ألفت نظره . . . .

ركبنا السيارة وتجولنا طويلاً . . دعانا لتناول العشاء . . لكن إلى أين ذهبنا . . لا ادري . . أكلنا وشربنا . . طلب الحساب . . اقترب النادل وهو ينحني إلى الأمام . . وبيده فاتورة الحساب . . ووضعها أمامه حاولت استراق النظر ، وضع ورقتين ذات المائة وخمسين بصمت . . ، ركلتني ابنتي من تحت الطاولة . . أخذت زوجتي تحرك حاجبيها وعينيها . . التفت جهاد ليجد زوجتي وهي تقوم بهذه الحركات العجيبة . . وقال لها :

ـ هل تحتاجين لأي شيء يا سيدتي ؟

أجبت بدوري : «لا . . لا . . زوجتي هكذا . . تحرك حاجبيها مسرورة» .

. . أعاد النادل بقية الحساب . . إلا أن جهاد قال له أبقه لك . . ونهض . . بينما راحت زوجتي تقول :

«تبهدلنا ، لا تدعه يهيننا أكثر» . . مددت يدي إلى جيبي . . وأخرجت كل ما فيه من قطع معدنية . ووضعتهم في الصحن حيث يوجد كشف الحساب . . اتجهنا إلى مكان تعليق الأردية . . قلت لجهاد مصمماً على الدفع . . «دع هذا علينا يا رجل» . . وأخرجت ليرتين ونصف ،أخذ الرجل الذي يقوم بهذا العمل المبلغ . . وراح

ينظر إلي نظرات غريبة ، لذلك قالت ابنتي : ادفع له أيضاً . . رفعت صوتي قائلاً :

آه يا بني ظننت أني أعطيتك عشر ليرات»

أعطيته عشر ليرات أخر . . سر كثيراً وتشكرني على جميل معروفي . . وشخص آخر فتح لنا الباب . . اعترضت جهاد . . وبشكل استعراضي مددت يدي لذاك الذي فتح الباب بليرتين ونصف . . وبينما كنا نركب السيارة ، اقترب منا رجل آخر وفي هذه المرة أيضاً ، قمت بحركة أكثر استعراضية ، كدت بسببها ألقي المسكين جهاد أرضاً ، و . . أعطيته ليرتين ونصف ، . . فرحت زوجتي كثيراً من تصرفاتي . . وقالت :

ـ لقد أفلحت في ذلك وبذلك أنقذت كرامتنا . . وبعدما ركبنا السيارة . . أتى رجل آخر فقالت ابنتي :

ـ هيا يا أبي ، ادفع له ، إنه يودعنا منحنياً وقبعته بيده . .

فمددت يدي إلى جيبي وأخرجت بحدود الليرتين والنصف وقلت له :

ـ خذ يابني .

أسدل الليل ستاره . .وذهبنا من منطقة «بوغاز» . إلى «بي أوغلو» . وهناك اقترح جهاد علينا دخول الكازينو . . دخلنا إحدى الحدائق الغناء . . لا رغبة لنا في الطعام . . لذا . . امتلأت مائدتنا بالمازاوات والمشروبات . . على خشبة المسرح فرقة البزق وامرأة تغني . . نادى جهاد أحدهم وأعطاه مائة ليرة وطلب من الفرقة عن طريقه أن يقدموا أغنية كان يرغب في سماعها . . أما زوجتي ، كعادتها ، فقد راحت تلكزني وتقول «لا تدعه يضعنا تحت واحدة» أجبتها «لا يا زوجتي العزيزة ، ونحن أيضاً لنا دور في ذلك ، أليس

دفع البخشيش للخدم والنوادل من واجبنا ؟ ولكن . . هل نستطيع مجاراته في ذلك ؟ . . كنت أتفجر في أعماقي ، ولكن ما عساي أفعل ! . . آه . . . تذكرت . . لأطلب السجائر : سيجارة من فضلك ؟ . . جلب لنا الدخان المطلوب . . علبة هرمن لجهاد . . دفعت لبائع الدخان ورقتين ذات العشر ليرات وقلت له «خلي الباقي» . . فرحت ابنتي من هذا الموقف ، وقالت مسرورة «برافو بابا» . . ثم اقترح علينا جهاد الذهاب إلى كازينو أوربي . . جلب النادل كشف الحساب . . وضع جهاد بصمت ورقة ذات الخمسمائة ليرة . . وترك الباقي له . . تصور أنه ترك بحدود الخمسين ليرة تقريباً ! ! ! . . آه يا ربي . . النقود في الصحن . . وزوجتي من ناحية وابنتي من ناحية أخرى راحتا تلحان علي بالدفع . . (هيا» لا تدعه يضعنا تحت واحدة . . يا هوه نحن لا نستطيع مجاراته فيما يفعل . . . آه . . . «أيها السيد المحاسب» أخرجت عشر ليرات . . لكن كمن يمزق كبده بيده . . ووضعتها في الصحن . . ولكن ما زادني غيظاً . . أن ابنتي قالت «هذا قليل يا بابا . . زد فوق ذلك» . . إي . . ي . . ي . . يه يا ربي» . .

عندما هممنا بركوب السيارة . . اقترب أحدهم . . وبسرعة مددت يدي إلى جيبي . . وقلت لجهاد دعه لي . . ودفعت خمس ليرات . . لأني لم أجد أقل منها . .

رحنا إلى مكان آخر . . قال إنه كازينو أوربي . . لا حاجة لنا بالطعام أو الشراب . . لذلك طلب البوظة . . بعدها أخبرت جهاد أنني سأذهب إلى بيت الخلاء . . فسر من ذلك كثيراً . . لأنه كان يرغب في ذلك أيضاً . .

بعد خروجنا اقتربت منا امرأة بيدها زجاجة كولونيا . .

فرحت أبحث في جيبي عن قطع نقدية صغيرة . . . لكنها غير موجودة . . دفعت جهاد بيدي وألصقته بالجدار . . ثم أخرجت خمس ليرات . . . حاولت إعادة الباقي . . وفي نفس الوقت قلت لها بصوت عالٍ كي يسمع جهاد الذي أصبح خارجاً . . «دعي الباقي معك» . . نعم قلت ذلك لكني خطفت الباقي من يدها . . وأودعتهم جيبي . .

جلسنا في أماكننا وقد انتصف الليل . . وعندما وُضِعت الفاتورة على الطاولة . . أخرج جهاد المائة ليرة . .

ارتبكت كثيراً . . كيف يدفع هذا المبلغ . . لذلك قلت له . . انتظر سأدفع البخشيش . . إلا أن النادل استغرب أكثر . . عندما أعطيته ثلاث ليرات . .

اعتقدت أننا ذاهبون إلى المنزل . . غير أن جهاداً دعانا إلى «الملهى» . . ولم يكن هذا المكان لأمثالنا . . شربنا الويسكي . . وتسلينا بشكل جيد . . لكنه طلب منا تغيير المكان . . ياهوه . . الساعة الآن الثانية . . وقد نال النعاس منا . . ويجب الذهاب إلى المنزل . . رغم ذلك . . لم يتنازل عن رأيه . . يحاول جاهداً تسليتنا . . نعم . . هو يدفع الحساب . . وأنا أنوء تحت كاهل البخشيش . . سدد حساب «الملهى» . . وأنا سددت البخشيش . . لا رأي لي في ذلك . . إلا أن زوجتي وابنتي . . تجبراني عليه . . انتقلنا إلى مكان آخر . . وهناك تناولنا بعض المشروبات . . وخرجنا حوالي الثالثة والنصف . . أي . . قارب موعد شقشقة الفجر . . آخ لو نستطيع الإفلات من قبضة جهاد الذي اقترح العودة إلى «البوغاز» لمشاهدة شروق اشمس . . رفضت وقلت له : «لا يا جهاد . . وأشكرك . . لقد أمضينا وقتاً سعيداً . . وعلينا العودة إلى

المنزل» .

أصر أن يوصلنا إلى البيت بسيارته . . غير أني أقنعته بأننا سنأخذ سيارة الأجرة ونتجه إلى البيت . . نعم !» كنا سنستقل سيارة الأجرة . . ولكن . . مددت يدي إلى جيبي ففوجئت بوجود قطعتين ذات العشرة قروش فقط . . وما العمل الآن ؟ . . التفت نحو زوجتي وقلت لها :

ـ قاتلك الله . . وماذا سنفعل الآن ؟ ! هاه . . هل لدينا القدرة أن نجاريه . . لا تدعه يضعنا تحت واحدة . . وهكذا بقينا في الشارع .

طوال حياتي لم أصرخ في وجه زوجتي هكذا . . أما ابنتي المسكينة فقد صدمها الموقف . . قالت «ونحن أيضاً نعيش حسب قدرتنا» . لم أعرف كيف أمسكتها بتلابيب شعرها وصفعتها صفعة قوية . . إنها المرة الأولى . . لقد فقدت صوابي . . لنمشِ إلى البيت . . هيا . . كلها ثلاث ساعات ونصل . . ألا تستطيع الوصول إلى البيت . . وسرنا . . نمشي . . نمشي . . بدا الطريق بلا نهاية . . ليس كما توقعت . . كنت أكيل الشتائم لزوجتي وابنتي . . تجمدت ركبتاي . . قدم ابنتي مصابة من الحذاء . . خلعته وسارت حافية . . الساعة حوالي الخامسة . . أف «لنجلس قليلاً أمام ذاك البنك ونستريح» جلسنا . . ومن شدة التعب . . غالب النوم زوجتي وابنتي ! . .

يا هوه . . أية مصيبة حلت بنا . . دع المصروف ! . البخشيش . . حتى البخشيش لا نستطيع أيضاً دفعه ! ! . .

أشرقت الشمس . . وأنا غافل من شدة النعاس . . سمعت أحدهم يقول :

ـ بهاء ، بهاء

استيقظت وإذ بجهاد أمامي راكب سيارته . . ماذا تفعل هنا ؟

أيقظت زوجتي وابنتي ، «مسكينتان» ارتبكتا . . ابنتي تحاول انتعال حذائها . . وأنا ماذا عساي أقول له ؟! . .

«قلت لهم لنجلس قليلاً هنا لنحضر شروق الشمس» . .

غادر جهاد المكان . . ووصلنا البيت كالأموات . . لذلك لم أستطع المجيء إلى العمل . . ولم يبق لدي فلس واحد . . حتى أجرة البيت لا أستطيع دفعها لصاحب المنزل . . والآن ، هل ستسلفني على راتبي ؟ . .

وقف المحاسب ، فكر قليلاً ، لو أراد لمنحه ، لكنه قال :

ـ مع الأسف يا بهاء بك . . مع الأسف ، لا يوجد اعتماد . . .

وفاة مارتا توره

قبل ستة عشر يوماً

كنت ، أخرج من منزلي يومياً في الثامنة تماماً ، لأصل إلى مكان عملي قبل التاسعة بقليل . . وكان من الطبيعي أن يختل هذا النظام أيام العطل والمرض والعوائق الأخرى ، ولكن ، لكي أخرج في هذه الساعة ، كانت زوجتي تعد لي الإفطار في السابعة والنصف . . وبعد تناول الإفطار ، كنت أجد فسحة من الوقت كي ألقي نظرة على الصحيفة أو أسقي أصص النباتات المتوضعة في الشرفة . . وبعد أن تودعني زوجتي كانت تعود لتوقظ الأطفال وتشرف على إفطارهم ومن ثم إرسالهم إلى مدارسهم . .

لدينا صبيان وبنت ، أكبرهما في الصف الرابع ، والثاني في الثاني ، أما آخر العنقود ، فما زالت صغيرة للذهاب إلى المدرسة . .

كنا ـ زوجتي وأنا ـ نحب القطط كثيراً ، لكن لم ندخل أي منها إلى المنزل إطلاقاً ، خشية على الأطفال وعلى عصفور الكناري . .

. . خمسة عشر عاماً مرّ على زواجنا ، أنا أحبها كثيراً ، وهي تبادلني نفس الشعور . . لكن ! . .

لا أدري الآن ـ بعد هذه الأيام الستة عشر ـ إن كانت ما تزال تحبني !! . . طوال هذه السنوات لم نتشاجر ، لا أقول إننا لم نختلف ، لكنا نثق تماماً بتجاوز أية مشكلة بالحوار . .

قبل ستة عشر يوماً ـ كنا نتألم كثيراً إذا سمعنا أن زوجين قد افترقا . . أي زوجين . .

حتى أننا كنا نشعر أن هذا الفراق هو فراقنا ، كذلك الحال فسعادتنا لا توصف فيما لو اتفق اثنان ، أي اثنين . . وهكذا ببساطة تامة كنا نمضي أيامنا ، قبل ستة عشر يوماً . .

لقد كتبت في دفتري ما حصل قبل ستة عشر يوماً . . تحديداً ، صباح يوم ٢٣ آذار . .

كانت زوجتي تعد طعام الإفطار كعادتها كل يوم ، وكنت أحلق ذقني بينما كان الأطفال يغطون في نوم عميق . ارتديت ملابسي وجلست إلى الطاولة . . لفتت انتباهي قطعة خبز محمص

محترقة ، لن أنسى ذلك اليوم ، لأنها المرة الأولى ، فزوجتي مصدر إعجابي فهي امرأة رائعة ، مثال الزوجة والأم . .

عندما طرق الباب . قلت لها مثل كل يوم :

ـ قد يكون بائع الصحف . . أجابت أيضاً كعادتها :

ـ نعم قد يكون . . فتحت الباب وأخذت الصحيفة ووضعتها أمامي . . مثل كل مرة . . وعندما أنهيت شرب كأس الشاي قالت لي :

ـ هل أسكب لك كأساً آخر ؟ ! . .

أجبتها مثل كل مرة أيضاً :

ـ أشكرك . . لن أستطيع .

طعام إفطارنا يتألف من الزيتون والجبنة البيضاء والمربى . . على الرغم من كوني لا أستسيغ المربى إلا أنه لم يفارق مائدتنا طوال الأعوام الخمسة عشر . . طبعاً . . كل ذلك يضاف إليه صحن الخبز المحمص . .

نهضت زوجتي لإيقاظ الطفلين، كنت أقرأ الصفحة السادسة حين فاجأني عنوان صغير «وفاة مارتا توره» راحت دموعي تتدافع وتتزاحم متساقطة على صفحة الجريدة . . تملكتني رعشة قوية وبما أنها كانت المرة الأولى لذا فلن أستطيع شرح ما أصابني . . انهمرت الدموع من عيني . . كنت سأبتعد متوارياً كي لا تلاحظ زوجتي ـ عندما كانت تضع فطور الأطفال على المائدة ـ ما أنا به . . كانت دموعي تنسكب على الصحيفة . . دهشت كثيراً فهذه هي المرة الأولى التي تشاهدني أبكي فيها منذ خمسة عشر عاماً . . سألت باستغراب :

ـ ما بك ؟ ! ! . .

وبسبب هذا السؤال أجهشت باكياً . . ولكي لا يشاهدني الأولاد هرعت إلى الغرفة المجاورة . .

كنت أسمع همهمات طفلي وهما يتناولان الإفطار . . اقترب موعد خروجي من البيت . . دخلت زوجتي الغرفة بخطوات وئيدة . . قالت :

ستتأخر عن عملك . .

لم أستطع إجابتها ، ولم تكن لدي القدرة على الخروج من

البيت . .

تأثرت كثيراً ، مع أني لم أتأثر بهذه الشدة لوفاة قريب أحبه . . لست شخصاً بكّاءً . . لكن لم أستطع ذاك الصباح السيطرة على نفسي ، وأجهشت بالبكاء . .

أرسلت زوجتي الأولاد إلى المدرسة ، دخلت وبيدها الصحيفة وقالت :

ـ ماذا جرى ؟ !

كيف يمكنني أن أشرح لها ؟ لكن ! . . لا بد أن أخبرها بما حدث ، وهل ستفهمني ؟ حتما . . ستفهم ! . . وهل أستطيع إخبارها ؟ ! . . يا لها من حادثة وقعت قبل ثلاثة وعشرين عاماً . . لم أتصور أني سأذكرها في يوم من الأيام . . وأني سأتأثر بها هذا التأثر البالغ . قالت ـ عندما لم تسمع الجواب على سؤالها :
ـ هل أستطيع مساعدتك ؟ .

ـ ماتت مارتا توره . .

قرأت زوجتي الخبر المطبوع في خمسة أسطر بللتها دموعي :

«إن وفاة نجمة السينما الألمانية المشهورة . . والتي ذاع صيتها في كل أرجاء العالم . . تركت أثراً بالغاً من الحزن في الوسط الفني»

كنت أبكي عندما ساد صمت لمدة دقيقتين . . أحسست أنها فترة طويلة جداً . . وكأن الزمن قد توقف . . والساعات . . لم تعد تتحرك . .

ـ إذا كنت لا ترغب بالحديث . . فكما تشاء . .

ـ ماذا أقول لك ؟

ـ لم تقل لي إنك سافرت إلى ألمانيا من قبل ! . .

ـ لم أذهب إلى ألمانيا أو أي مكان آخر . .

ـ إذن . . هي قد جاءت إلى هنا . .

ـ لا . . الأصح . . لا أدري . .

هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها غيرة زوجتي . .

ـ إذن . . أين تعارفتما ؟ ! . .

ـ لم نتعارف .

ـ لمَ هذا الحزن كله إذن ؟ . ها . . ؟ وما الذي أحزنك لهذه الدرجة ؟ أود التعرف على ما أحزنك . . وما يجب أن تشرحه عبارة عن ذكريات قديمة . .

سألتها :

ـ هل شاهدت أفلامها ؟

ـ لا . .

ـ وأنا أيضاً لم أشاهد أفلامها ! ! . .

خرجت من الغرفة بعصبية . . وثم سمعت صوت انغلاق الباب الخارجي . . استطلعت الأمر . . فإذا بها قد ذهبت . . والصغيرة معها . . منذ ستة عشر يوماً . . ولم تعد . . أما أنا فلم أذهب إلى العمل بانتظار عودة زوجتي . . لقد أخطأت لأني لم أشرح لها حادثة «مارتا تورة» . . كان من الأفضل أن أقول لها شيئاً ما ، لكن لم يكن شيئاً هاماً ولن أستطيع شرح ذلك . . كنت أتفجر . .

كنت في الرابعة والعشرين من عمري . . وكنت حينها ملازماً احتياطياً . . وقد أمضيت سنة ونصف السنة في براكة . . وحيداً . . بين جدران أربعة لا غير . . شتاء المنطقة يمتد ثمانية شهور . .

ستة شهور والثلوج الكثيفة لا تفارق أراضيها فتنقطع بذلك عن العالم الخارجي . . الطرقات . . أشكال المواصلات الأخرى . . كلها مقطوعة . . ستة شهور . . كنت أعيش في براكة طينية لها نافذة صغيرة واحدة . . بل . . فتحة زجاجية واحدة . . لأنها تفتح ولا تغلق . . وبدون إطار . . أمضيت ستة أشهر منها فصل الصيف . . ثم . . بدأ فصل الشتاء . . زحف البرد مبكراً . . لكن الثلج لم يتساقط بعد . . كنت أعد طعامي بمفردي . . اشتروا لي كيلوين بطاطا . . وضعت البطاطا في كيس ورقي . . لفت انتباهي شيء ما في الكيس . . وبعدما أفرغت محتواه . . رحت أزيل لصقته بتأني وحذر شديدين . .

إنه مصنوع من صفحة مجلة ملونة . . وجه امرأة جميلة . . وتحت الصورة اسم «مارتا توره» . . لم أكن أعرف من هي ، لكني توقعت أن تكون نجمة سيمائية . .

صنعت من لب الخبز عجينة وألصقت الصورة بها على الجدار الطيني . . وذلك بعد أن قصصتها بعناية ودقة تامتين . . وهكذا أمضيت سنة ونصف السنة مع «مارتا توره» . . لقد أعطت وحدتي لوناً ونكهة . . ولو لم تكن لكانت حياتي صعبة جداً . . بعد ذلك وحتى الآن لا أتذكر ماذا فعلتُ بصورة «مارتا توره» . . فأنا حقيقة لم أعطها أي اهتمام عندما كنا سوية . . لذلك لم أفكر بها . . كل ما هنالك أنها صورة مطبوعة على ورقة خاصة . . وأن طبيعة الحياة هناك لا تمكن المرء من التفكير بهذه الأمور . . وبعد أن تسرحت من الخدمة الإلزامية . . لم أتذكر «مارتا توره» إطلاقاً . . نسيتها تماماً . . أما في ذلك الصباح في ٢٣ أيار . . عندما قرأت نبأ وفاتها في الصحيفة . . أدركت أني لم أنسها . .

كنت سأشرح لزوجتي كل ذلك . . حتى لو لم تسألني أو تلاحظ بكائي . . كنت سأشرح لها وليس ما يحول دون ذلك . .

كم كنت أرغب أن أتقاسم كل شيء مع أقرب الناس إلي . . لكنها . . ذهبت . . ستة عشر يوماً مضت ، وأنا لا أذهب إلى العمل منتظراً عودتها ، كنت أخجل من السؤال عنها في مدرسة أولادي أو في مكان آخر . . . غادرتني زوجتي . . و . . ماتت مارتا توره . .

رجل بلا هوية

راحت النشرات الإخبارية تنقل بلاغ لجنة الطوارئ «على كل مواطن اصطحاب هويته معه لإبرازها عند الطلب وكل من يخالف سيعرض نفسه لعقوبة التوقيف الفوري» .

كذلك فقد شاطرتها الصحف اليومية بنشر ذات البلاغ على صدر صفحاتها .

لقد أعلن نظام منع التجول ليلاً وهذا يعني أنه يجب على من يملك منزلاً البقاء فيه ، ومن لا يملك البقاء حيث يحل عليه الليل .

وهكذا ، تم تفتيش المنازل والشقق وأماكن السكن وأوقف جميع المواطنين الذين لا يحملون هوياتهم واحتجزوا داخل لوريات (شاحنات» عسكرية بغية إرهابهم ومن ثم نقلوا إلى معسكر مغلق ، وحشروا داخل براكات عسكرية وغالبيتهم كانوا من المساكين المعدمين وبعضهم أنصاف عراة .

ولحسن حظهم فقد كانت درجة حرارة الجو مرتفعة وبذلك أمضوا ليلتهم بلا فراش ولا لحاف

ـ يا لهم من مساكين ! . . قال أحد العرفاء مشفقاً

بينما رد عليه أحد الملازمين :

ـ أو تظن أن المكان الذي يأوون إليه أفضل ؟ ! ! . .

لقد صدق الملازم بما قال فشخيرهم ونومهم العميق يدل على ذلك .

استمرت السيارات العسكرية بنقل أولئك الموقوفين لأنهم بلا هوية .

قال أحدهم :

وماذا بعد ؟ ، أما كان من الأفضل لو نص البلاغ على إيقاف من يحمل هويته ، أغلب الظن أن أصحاب القرار لم يكونوا بصورة الوضع .

في اليوم التالي انتهت فترة منع التجول ، لذلك فقد تم الإفراج عن جميع الموقوفين وراحت سيارة عسكرية تنقلهم من أمام البراكات العسكرية الأمريكية إلى المدخل الرئيس للثكنة ، وكلف لهذه المهمة قائد فصيل بالإضافة لسائق السيارة .

تجمع عدد من الضباط وحديث الموقوفين يجمعهم حول طاولة موضوعة في مكان ظليل قرب باب البراكة . استغرب أحد قادة الفصائل من كثرة أولئك الذين لا يحملون هوياتهم

بينما رد عليه قائد الكتيبة قائلاً :

ـ لو كان عددهم حوالي الخمسة لأوقفناهم وأحلناهم إلى المحكمة ، لكن كيف سنحيل كل هؤلاء ؟ ! ! ! .

وافقه قائد الفصيل الرأي :

ـ نعم يا سيدي لو كان عددهم أقل من ذلك لسجنوا لا محال .

ـ نعم هذه فائدة الكثرة وقوتها .

ـ طالما أن عددهم بهذا الشكل لمَ إذن التدقيق على الهويات هاه ؟ !

من كان ينتظر دوره لركوب السيارة لم يكن يعرف إلى أية جهة نقلوا الجماعة التي سبقته أإلى التحقيق أم إلى السجن لذلك انتابه شعور التوجس والقلق بينما كان الآخرون هلى العكس تماماً فسعادتهم كانت لا توصف بسبب إطلاق سراحهم .

عند المساء ، عادت السيارة بعدما نقلت الدفعة الأخيرة مختفية داخل سحابة كثيفة من الغبار . ـ وهكذا أنجزنا مهمتنا ـ قال قائد الفصيل متبجحاً .

لكن عندما تبين وجود أحدهم داخل السيارة سأل قائد الكتيبة :

ـ ومن هذا أيضاً ؟ . . .

توقفت السيارة قرب باب البراكة ونزل منها الملازم ومن ثم ذاك الشخص .

سأله قائد الكتيبة :

ـ ومن أين أتيتم به ؟

أجابه الملازم :

انه أحد الموقوفين يا سيدي ، تم إيقافه مساء أمس .

ـ يا هوه ، أما قلت لكم أن تطلقوا سراحهم جميعاً ؟

أجابه الملازم :

ـ نعم ، أطلقنا سراحه منذ اللحظات الأولى يا سيدي لكنه يرفض .

ـ اتركه هناك ، أمعتوه هذا ؟

ـ رفض الخروج من باب الثكنة يا سيدي .

ـ ادفعه إلى الطريق العام ودعه ينقلع .

ـ يرفض ذلك يا سيدي ، لقد دفعه حارس الباب الرئيس غير أنه عاد ثانية .

نظرنا إليه فإذا بنا أمام رجل لا يتجاوز المتر والنصف معفرْ الوجه كث اللحية ، أما يداه فقد اختفتا داخل أكمام سترته البالية ، أما قدماه فقد اختفيا داخل خفين باليين أحدهما قماشي أبيض ممزق والآخر أسود ملطخ بلون التراب .

صرخ قائد الكتيبة في الرجل :

ـ أبلاء أنت ؟ ! !

همس الرجل في أذن قائد الفصيلة الواقف أمامه .

وهو بدوره نقل ما سمع قائلاً :

ـ يا سيدي ، في مساء الأمس وبينما كنا نفتش ركاب إحدى الحافلات وجدنا هذا الرجل بلا هوية . أنزلناه من الحافلة . . . أما هو فقد طلب من السائق قبل نزوله قيمة تذكرة الحافلة .

ـ والى أين كانت وجهته ؟ .

ـ أنطاليا .

ـ وهل استرد قيمة التذكرة من السائق ؟

ـ لا لم يستردها ، لأن السائق قال له : تستطيع أن تستردها ممن دفعت له قيمتها .

ـ محق ذاك السائق ـ قال قائد الكتيبة ـ .

ـ نعم محق ، إلا أن الرجل قال له أنني دفعت قيمة التذكرة كي أصل إلى أنطاليا .

ـ وهو محق أيضاً

ـ نعم ، إلا أن السائق قال له وهل هناك ما يمنع من متابعة رحلتك إلى أنطالية ؟

ـ صحيح .

ـ نعم ، أجابه الرجل : وكيف أستمر برحلتي ؟ ، ألا ترى كيف يطلبون مني النزول ؟ ! . رد عليه السائق :

وما يهمني هاه ؟ ! فأنا لم أطلب منك النزول .

ـ حسناً ، ـ قال قائد الكتيبة ـ ، وما العمل الآن ؟

ـ لا أدري يا سيدي ، كلّما طردناه، عاد ودخل ثانية .

ـ يهوه ، أبلاء أنت مسلط على رؤوسنا هاه ؟

ـ قد يكون السبب استمتاعه لدينا وأنه وجد أخيراً سقفاً يحتمي تحته .

راح قائد الكتيبة يضحك مقهقهاً ، وقال :

ـ يرفض الذهاب هاه ! ! ! أم أنه لا يملك أجرة الطريق ؟ ! ! !

أجابه قائد الفصيلة :

ـ نعم يا سيدي ، لكن ، لو كان لدينا مثل هذا الرجل اثنين آخرين لوجدنا الحل المناسب .

ـ كم ثمن تذكرة الحافلة إلى أنطاليا ؟

أجاب الرجل هامساً في أذن قائد الفصيل : خمس وسبعون ليرة .

لو كان ثمن التذكرة حوالي الثلاثين ليرة لأعفيت الضباط عن المشاركة .

لذلك فقد دفع كل واحد منهم عشر ليرات ، بينما قام قائد الفصيل بتسليم المبلغ للرجل . . .

ظل الرجل واقفاً بعدما وضع المبلغ في جيبه ، بينما استشاط قائد الكتيبة غيظاً وصرخ بأعلى صوته :

ـ ولك ماذا تريد بعد ؟ هيا انقلع من هنا !

قام الرجل بإبلاغ ما يريده لقائد الفصيل ، الذي أبلغ قائد الكتيبة به

ـ نعم يا سيدي إلا أنه يريد عشر ليرات ثمن زوادة الطعام التي كانت معه .

أخرج قائد الكتيبة المبلغ من جيبه ودفعه للرجل وقال :

ـ لم أر مثلك طوال حياتي ، هيا انقلع من هنا . . .

ركب الرجل بجانب قائد الفصيل في السيارة التي ابتعدت متجهة صوب الباب الرئيسي . . . .

النافذة المفتوحة صوب الغرب

لقد اعتدنا على ذلك !!! . . خاصة عندما يرافق أي مسؤول في زيارته أحد الصحفيين أو الكتاب ، وعندما يلقي ذاك المسؤول كلمته ستجد من يتبجح ويقول :

ـ أنا من أعد له تلك الكلمة .

وفيما لو وثقت بكل من تبجح فسوف تجد أن الكلمة قد أعدت من قبل خمسة أو عشرة أشخاص أو أكثر ومن هنا تستطيع أن تستنتج لم هذه الكلمات مهلهلة لهذا الحد .

لذا على أولئك المسؤولين عدم مرافقة أي واحد منهم أثناء قيامهم بأية رحلة أو زيارة لأن أولئك الصحفيين أو الكتاب سيتفاخرون فيما بعد أمام عشرات الألوف قائلين :

ـ أنا من أعد له تلك الكلمة .

ومن أولئك الصحفيين واحد لم يتجاوز الأربعين عاماً قال :

ـ لقد كتبت كلمات كثيرة ، ومن بين من كتبت لهم أعضاء في البرلمان .

وأولى تلك الكلمات كتبتها لمفتي مدينتنا عندما كنت في التاسعة عشر .

وبعد هذه المقدمة راح يشرح لنا قصة هذه الكلمة :

مدينتنا هناك صغيرة ونائية ، وكما يقال يمكنك بسهولة أن تظهر كبيراً في ناحية صغيرة . لم أنه المرحلة الثانوية عندما بدأت بكتابة افتتاحية صحيفة مدينتنا ، الوحيدة طبعاً . لذا فكل واحد كان يقول «ما شاء الله ما أقوى قلمه» .

ترافق وصول القطار إلى مدينتنا مع إنهائي لدراستي الثانوية ، وهذا يعني أن القطار سيدخل مدينتنا لأول مرة . . وبذلك راح كل واحد من سكان مدينتنا يعد عدته لهذه المناسبة الكبيرة .

مفتي مدينتنا تربطنا به علاقة قربى بعيدة نوعاً ما . أرسل يطلب إعداد كلمة ليلقيها بمناسبة افتتاح الخط الحديدي . . . .

فهذا المفتي ، شخص واسع الإطلاع نحترمه ونجله مذ كنا صغاراً، لذا كنا نعتبره علامة بكل شيء ، يعرف كل شيء ، لذلك جميعنا يثق به . تجاوز السبعين ذو لحية طويلة بيضاء ، قلما يخرج من بيته ، لذلك كان الجميع يأتون لزيارته وعندما يبدأ بحديثه نستمع إليه باهتمام بالغ ، ولا أحد يقاطعه ، وله أسلوب متميز في الحديث يحرك شفتيه عند حديثه ويتكلم بصوت غير مسموع أشبه بالهمس ، ولذلك فإن الكلمات التي يتفوه بها تكون قيّمة وهامة من هنا كنا نستنبط وسع علمه ، وإدراكه ، من طريقة حديثه .

من أكثر العلوم التي يلم بها مفتينا هو التاريخ لذلك كنا نعتبره مؤرخ مقاطعتنا . يتذكر جميع الوقائع والحوادث ، من سكن في البيت الفلاني ، ومن عاش فيه وماذا فعل . جميع الحرائق التي

وقعت فيها وكيف فتحت القوات الإسلامية هذه المناطق أيام البيزنطيين يعني يمكننا أن نقول إنه عالم بكل شيء .

لذا فإن جميع سكان منطقتنا يفتخر بمفتينا . رئبس البلدية أو رئيس الولاية وما شابه ذلك ، من ذوي المناصب العالية ، يأتون من حيث المكانة بعد المفتي بدرجات كبيرة . وعندما يزور منطقتنا أحد المسؤولين الكبار فان أول ما يزورونه هو المفتي ، ويقبلون يده .

ولهذه الأسباب ، كان لزاماً على مفتينا إلقاء كلمة بمناسبة وصول القطار إلى مدينتنا وهو بدوره كلفني بإعداد هذه الكلمة الهامة . لقد كانت وطأة هذه المهمة كبيرة علي ، فأنا . بهذا العمر ـ لم أزر مدناً كبيرة مثل استنبول أو أنقرة . ماذا بوسعي قوله عن دخول القطار إلى مدينتا ؟ كل معلوماتي تتأتى من قراءة كتب عدة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة أو بعض الصحف والمجلات .

استطعت إعداد هذه الكلمة بعد عمل مكثف جداً استمر ثلاثة أيام ، وأرسلتها للمفتي مع عمي .

وفي اليوم الموعود أعد مهرجان كبير حشد له جميع سكان المنطقة .

وصل القطار وذبحت الضحايا ، بعد ذلك كان الوالي أول المتحدثين وتلاه مفتينا . . . أما أنا فقد كنت مضطرباً أكثر من المفتي . ويمكنني أن أتذكر مما قاله المفتي ما يلي :

«القطار نافذة مفتوحة صوب الغرب ، سيدخل منها الضياء والنور ، ليس النور فحسب ، بل أشياء أخرى . لقد وصلتنا الحضارة والمدينة على عجلات وأنتم جميعاً تعرفون ما هي العجلات فهي أقدام المدنية والحضارة . ولولا المدنية لما بقي أحد

منا في هذا العالم ، ونحن أيضاً سنتطور بفضل هذه العجلات . انظروا إلى هذه الأنفاق ، إلى هذه الفتحات في الجبال ، ومنها هيهات هيهات ماذا سنستقبل ! ! . سنستقبل النور والضياء

هذه خزينة ، لتحافظ عليها أيها الأخ المواطن ، فعند محافظتك عليها ستكسب الكثير وبذلك سوف تثري وترتفع مكانتك .

العجلات سوف تنزلق على سكة الحديد فالأمور لم تعد صعبة مثلما كانت عليها في السابق ففي كل رحلة سوف تثري أكثر أيها المواطن لذلك كلما ازداد عدد الرحلات كلما ازددت ثراء .

الصعوبة كانت تتجلى في افتتاح الطريق ، لكن ، بعد افتتاحه صار جميع المواطنين يستطيعون الذهاب والعودة عليها بسهولة .

وبذلك ستزداد قيمة أموالنا . وأنت أيها المواطن عليك معرفة ذلك .

ومن أهم أولويات جمهوريتنا المحافظة على أموالها ، يجب المحافظة وأن لا نرتجف عندما نركبه ونستخدمه وندوس عليه وإلا فسيتعطل وبعد ذلك لن يستفيد منه من سيأتي بعدنا . هذه ليست أموال غرباء كي نستهتر بها . هذه أموالنا ، أموال كل المواطنين بلا استثناء .

شاب في الثامنة عشر ، لتوه أنهى دراسته الثانوية ، ماذا عساه أن يكتب غير ذلك . . .

لقد لقي مفتينا أثناء وبعد إلقاء كلمته التصفيق الحار حتى أن كلمته هي الوحيدة التي لاقت هذا التصفيق الحار بمعزل عن الكلمات الأخرى . . وهكذا راح الجميع يردد «حقيقة أن مفتينا شيخ عليم» نعم حقيقة أن مفتينا استطاع أن يحفظ الكلمة عن ظهر قلب من ناحية ومن ناحية أخرى ألقى الكلمة بحماس منقطع النظير .

بعد ذلك توالت الدعوات على مفتينا لإلقاء كلمة في كل مناسبة ، ومفتينا كان يكرر نفس الكلمة السابقة فقط كان يحذف كلمة قطار ليضع عوضاً عنها اسم المناسبة التي دعي من أجلها أما ما تبقى من الكلمة فتبقى كما هي .

رغم ذلك فان وقع الكلمة على الحاضرين كان جيداً وكأنهم يسمعونها لأول مرة حتى أننا لم نمل ولم نكل من تكرارها .

كذلك ألقيت هذه الكلمة بمناسبة العيد الوطني عند افتتاح مصنع للخردوات بحضور مسؤول كبير .

أحد أقربائنا اسمه زيا[١] والده غني جداً ، تزوج بفتاة من استنبول وأقيم له عرس لم يسمع ولم يشاهد مثله من قبل . ولقد دعي لحضور حفل العرس جميع وجهاء المنطقة . ونحن أيضاً حضرنا . عائلة «زيا» متعصبة جداً ، نعم ، جداً متعصبة لذلك فالنساء كن مجتمعات في غرفة والرجال في أخرى ، لكن وبما أن العروس من استنبول فقد تم دعوة الجميع ، نساءً ورجالاً ، بعد الانتهاء من تناول الطعام إلى غرفة واحدة .

طلب من مفتينا برجاء إلقاء كلمة بهذه المناسبة ، للحقيقة لم تكن لديه الرغبة في ذلك ، لكن وتحت إلحاح الحاضرين ونزولاً عند رغبتهم وقف ليلقي كلمته قائلاً :

أيها المواطنون المحترمون !

«هذا العش الذي بديء ببنائه من جديد ، ما هو إلا نافذة مفتوحة صوب الغرب»

منذ بداية الكلمة ساد عدم الرضى لأنها أججت المشاعر المتعصبة بالغضب خاصة التشبيه بالنافذة المفتوحة صوب الغرب .

بعد ذلك التفت المفتي الى العروس ليتابع كلمته :

«من هذه النافذة سيدخل النور والضياء ، ليس ذلك وحسب ، كذلك أشياء أخرى . .»

ونظراً لزواج «زيا» بفتاة من استنبول فقد تقطب حاجباه وتفرست عيناه أما يداه فقد أخذتا بالرجفان من هول ما يسمع ، رغم ذلك فقد تابع مفتينا كلمته :

«المدنية مثل النور ، أتتنا محملة على عجلات دائرية ، لذا علينا جميعاً احتضانها وشدها إلى صدورنا ، لأنها لنا جميعاً»

كانت تلك الكلمة تتقاطع بالسعلات المشحونة بالغضب .

«ها هي العجلة ، لكن ما هي العجلة ؟ ولو لم تكن العجلة لانهار العالم ولفنينا جميعاً العجلة حضارة ومدنية ، واليوم نحن نحتضن عجلة العصر الدائرية»

مد العروس «زيا» يده إلى جيبه الخلفي ، كان من المرجح وقوع جريمة وهذا كان واضحاً للعيان من الجو المتوتر الذي غطى العرس ورغم ذلك تابع مفتينا كلمته :

«انظروا إلى هذا النفق ! من هذه الفتحة ستأتينا أشياء كثيرة ! منها سنستقبل النور والضياء»

راحت الهمهمات تتصاعد من كل حدب وصوب .

أما مفتينا فكان يظن أن هذه الهمهمات ، ومثل كل مرة ، ما هي إلا للتعبير عن الارتياح عما يقوله لذلك التفت صوب «زيا» وتابع كلمته :

«وهذه خزينة ! يجب أن تحافظ عليها أيها المواطن ! وبذلك سوف تثري ويصبح لديك الكثير من المال ، وترتفع مكانة بلدك .

فالأمور لم تعد صعبة مثل السابق لذلك كلما ازداد عدد السفرات كلما ربحت أكثر أيها المواطن الشاب»

ولو لم يمسك أصدقاء العروس لسفحت الدماء، أما والد العروس الفتى فقد همس في أذن المفتي بكلمات غير مسموعة وهو بدوره تابع كلمته هازاً برأسه :

«الصعوبة لغاية افتتاح الطريق ، وبما انه افتتح فالجميع يستطيع الذهاب والمجيء عليه براحة . ايها الصديق لكي نصبح من عداد جمهوريتنا تقتضي المحافظة على قيمة ما بين أيدينا ، يجب ألا نرتجف أثناء ركوبه والدوس عليه ، واذا لم نركبه بشكل جيد فسوف يتعطل ، وبذلك لن يستفيد منه غيرنا ، هذه الأموال أموالنا وليست للغرباء حتى نتعسف أثناء استخدامنا لها . . هذه أموالنا . . !»

أخرجوه إلى الخارج لذلك لم يستطع سماع بقية كلمة المفتي ، إلا أن المفتي وقع في حيرة ، لم تقابل كلمته بالتصفيق الحار المعهود .

وزعت ضيافة العرس . أما «زيا» فقد أرسل عروسه الحلوة إلى استنبول ، وتطلقا .

بيتنا

عمارة قديمة ، كبيرة متعددة الطوابق مبنية على قطعة أرض كبيرة ، غرفها متعددة ، حتى أن صاحبها الذي ورثها عن أبيه ، لا يعرف عددها ، غرف متداخلة ، شرف وصالونات ، مطابخ عديدة ، يخال لداخلها أول مرّة أنه في حضرة مغارة قديمة .

يسكن في هذا البيت رجل مع زوجته الجميلة وبناته الحلوات ، وابنه الوحيد .

وبسبب قدمه ومع مرور الزمن راحت تتساقط بعض جنباته لكن ، برغم ذلك ، فما انفك صاحبه يتبجح قائلاً :

ـ بيتنا . . .

وعندما يذكر هذه الكلمة ينتفش مثل ديك رومي وينتفخ مثل طاووس وينتشي فرحاً وكأنه ملك الجنة . وكما قلنا ، راحت جدران الطابق العلوي تتهاوى واحداًبعد آخر مما اضطره لنقل اشيائه إلى طابق أسفل . حتى الغرف الجانبية المطلة على الحديقة في هذا الطابق كانت مهددة بالسقوط ، وهكذا تجمعت الأسرة في الصالة

الوسطى والغرف المحيطة بها .

وكما أسلفنا ، فإن الغرف عديدة فهي تكفيه كي يمضي حياته فيها ، حتى لو بقي في كل غرفة يوماً واحداً . متجنباً بذلك حر الصيف وقر الشتاء .

كان هذا البيت مصدر سعادته وهذا ما كان يعبر عنه بـ :

ـ بيتنا .

ذات يوم طُرق الباب الخارجي والطارق كان جاره القاطن في الجانب الأيمن من بيته ، ومن الطبيعي أن يدعوه للدخول فتربيته لا تسمح بعكس ذلك .

راح يتحدث كعادته دون توقف ، حتى دون أن يفسح المجال لضيفه كي يفصح عن سبب زيارته . وبين عبارة وأخرى يطلق كلمته المعهودة «بيتنا» .

ـ نعم بيتكم كبير ، جميل وهادئ .

فرح صاحب البيت مما سمع .

ـ نعم أنت محق بذلك فبيتنا كبير . ولا يمكن لأحد أن يخالفك الرأي .

ـ لكن يا جاري ، وكما تعرف فإن بيتنا صغير وعدد أفراد اسرتي . . . . لذلك جئتك راجياً أن تؤجرني غرفة لستم بحاجة لها .

نعم الغرف عديدة وبأجرة الغرفة سيتمكن من ترميم ما أفسده الزمن .

ـ نعم ولمَ لا ؟ ـ قال صاحب البيت ـ اختر الغرفة التي تعجبك .

اختار غرفة مناسبة ونقل اشياءه اليها . لكن ماحدث هو أن صاحبنا زاد من تبجحه ، إذ أنه كثيراً ما كان يذيع بين أصحابه

قائلاً :

ـ لقد أجرنا غرفة في «بيتنا» .

بعد فترة زاره أحد الجوار ليقول له :

ـ سمعنا أنكم تؤجرون غرفاً في بيتكم ، هل لي أنا أيضاً استئجار غرفة لديكم ؟ .

وافق صاحب البيت على طلبه ، وهكذا راح يؤجر غرفة بعد أخرى .

وذات يوم أتاه أحد الجوار :

ـ حديقتكم كبيرة جداً ، لمَ لا تزرعونها وتستفيدون من خيراتها ، وهل بإمكاني استئجار بعض الدونمات فيها .

وافق صاحب البيت على فكرة جاره ، لمَ لا طالما أنه لا يستخدمها ولا يستفيد منها .

بعد فترة أخرى أتاه جار آخر يطلب منه إمكانية استخدام البئر لانخفاض منسوب المياه في بئرهم .

رد عليه صاحب البيت قائلاً :

ـ ولم لا تحفرون بئراً آخر .

أجابه الجار الزائر :

ـ حفرنا ، ومع ذلك فمياهه لا تكفينا ، طبعاً سنستخدم بئركم لقاء أجرة تطلبونها .

لم يجد صاحب البيت ما يمنع من منح الجار إمكانية استخدام البئر . طالما أنه لن يتضرر من ذلك . ذات مرّة أتاه أحد المستأجرين طالباً شق درب عبر الحديقة ليصل بيته بالغرفة التي استأجرها .

أجابه صاحب البيت :

ـ أنت محق بذلك !

وهكذا ازدادت الأسباب التي تدعو إلى تبجحه أكثر فأكثر حتى أن عينيه راحتا تشاركانه فرحه وسروره .

ذات يوم قدم إليه أحد المستأجرين ليطلب منه غرفة أخرى إضافة لتلك التي لم تعد تكفيه ، بالطبع مثل كل مرّة وافق صاحب البيت قائلاً :

ـ لمَ لا ، فالغرف كثيرة .

وهكذا راح المستأجرون كل واحد بدوره يطلب زيادة عدد غرفه .

هذا يقول :

ـ نريد غرفة لنخصصها للنوم .

وذاك يقول :

ـ نريد مطبخاً ،

وهكذا ازداد دخل صاحب البيت مما انعكس ـ وهذا شيء طبعي ـ على حياة أسرته .

زوجته وبناته مسرورات وسعيدات يغنين ويرقصن .

أما هو فقد كان يجلس مع أسرته كل مساء لينفش مثل الديك الرومي . مثل كل مرّة متبجحاًأكثر فأكثر مردداً كلمته .

ـ بيتنا .

ازداد عدد المستأجرين وازدادت طلباتهم

ـ جوانب البئر بدأت بالانهيار ، لا بد من تدعيمه وإلا

سنعطش .

ـ ليست لدي نقود .

ـ لا يهمنا ، ما نعرفه أننا ندفع أجرة البيت في موعده . لدينا حل ، يمكننا مساعدتك بإقراضك مبلغاً من المال .

نعتبره ديناً عليك وسوف تسدده وفوائده .

ـ أشكركم ، لن أنسى معروفكم هذا

وهكذا أنهى صاحب البيت ترميم البئر وعلى شرف ذلك أبى إلا أن يستضيف مستأجريه على مائدة الطعام ، ومن الطبيعي وعلى مائدته ساد جو من النقاش بينه وبينهم .

ازداد عدد المستأجرين ومعهم ازدادت متطلباتهم من الماء فبئر واحدة لم تعد تكفيهم .

ـ أنتم تعرفون أنني لا أملك ما يكفي لحفر بئر آخر .

ـ نعم ، لكن ، سنقرضك ، وتسدد مع الفوائد فيما بعد .

فكر صاحب البيت قليلاً خاصة وأن البئر سيبقى ملكه أولاً وأخيراًوبذلك ستزدهر حديقته .

كان الاتفاق أن يحفر ثلاث آبار لكنه ، لم يحفر سوى بئر واحدة لأن المبلغ المقترض لم يكف . وذلك بسبب تصرفه بالمال إذ اشترى بعض الاشياء النسائية ومواد التجميل ، زاره أحد المستأجرين ليطرح عليه مسألة ، فقد سبق وأن اتفقا على تخصيص معبر في الحديقة إلا أن هذا المعبر لم يعد صالحاً وبحاجة لترميم :

أجابه صاحب البيت .

ـ لا أستطيع فأنا لا أملك النقود .

ـ أدفع لك مقابل استخدام ذاك الممر . لذلك أصبح لزاماً عليك ترميمه .

ـ قلت لك لا أملك النقود .

ـ حسناً ، سأقرضك مبلغاً لكن ما أتمناه أن لا يكون مآله كمآل قرض البئر الذي منحناك إياه ، وعوضاًعن حفر بئر رحت توزع النقود على زوجتك وبناتك . لذلك لا بد من وضع ضوابط ومراقبة كيف ستستخدم القرض في ترميم الممر .

لا يهم طالما أنه لن يرمم الممر على نفقته الخاصة لذلك اغتبط من اعماقه ليقول :

ـ بيتنا . . .

السقف بحاجة لترميم فهو كالغربال . والاستمرار في ذلك ضرب من المستحيل .

ـ لا أملك النقود للقيام بذلك .

ـ ليست مشكلة ، تؤجرنا غرفة ثانية وبأجرتها تقوم بترميم السقف .

لم ينس صاحب البيت فضل وكرم مستأجريه لذلك كثيراً ما كان يقول لهم :

ـ الله يرضى عليكم .

ـ الدرج بحاجة للإصلاح .

وتحت ضغط مستأجريه قام صاحبنا بتأجير ثلاث غرف أخرى . وبدوره نزل إلى الطابق الأسفل ومع ذلك كان ينتفش كالديك الرومي ليقول :

ـ بيتنا .

هذه الكلمة التي كانت تصدر من فمه بشكل مميز .

أنابيب تصريف المياه المالحة لا تعمل وهي بحاجة لصيانة أو تبديل .

لم يبق في العمارة الكبيرة أية غرفة شاغرة لذلك اضطر لتخليته الغرف التي كان يسكنها ليستقر في الطابق الأرضي وبأجرة الغرف التي كان يسكنها قام بإصلاح أنابيب التصريف .

ـ يجب إعادة طلاء العمارة . . .

لكن الطلاء بحاجة للنقود ، وكما هو معروف أنها غير متوفرة ، فأجور غرف العمارة لم تعد تكفي للترميم ومصروف عائلته ومستلزمات زوجته وبناته .

عند حلول فصل الصيف . قام صاحب البيت بنصب خيمة في أرض الحديقة أما العمارة فكانت تغص بالمستأجرين ، أما هو فما انفك يتبجح قائلاً :

ـ ما أجمل بيتنا . . .

ـ الجدران بحاجة للتكليس . . .

لذلك لا بد من تلييسها أولاً ومن ثم تكليسها .

ـ لا أستطيع .

ـ لكن أليس البيت بيتكم ؟

نعم البيت بيته لكن التلييس والتكليس بحاجة للنقود ، والمصيبة الأعظم أنه لو لم يقم بذلك لهددوه بالإخلاء وبذلك سيزداد عبء الديون على كاهله .

وبالفعل راح المستأجرون يهددون بالخروج من العمارة . وكأنهم متفقون على ذلك ، أما صاحب البيت فكان يطلب مستعطفاً

البقاء في البيت .

وهكذا راحت زوجته وبناته يعملن لدى المستأجرين فيقمن بإعداد الطعام وتنظيف البيت أما ابنه فكان ينجز بعض اعمالهم الخاصة .

ومن إيراد هذه الأعمال أكملت صيانة البيت .

وهكذا بدت العمارة القديمة حسنة جميلة المنظر ، وقام صاحبها بتسديد ضرائبها لهذا العام .

أما المستأجرون فكانوا كثيراً ما يقولون له :

ـ لم لا تهتم بزوجتك وبمظهرها ، بناتك يلبسن الثياب المهترئة ، هذا يسيء لنا ولسمعتنا . . أما صاحبنا فكان يجيبهم :

ـ محقون في ذلك لكن ليس لدي النقود .

ـ يا أخي هذه زوجتك وليست زوجتنا كذلك بناتك . لكن يمكننا مساعدتك .

ـ الله يرضى عليكم .

ذات ليلة شتائية قارسة جلس صاحب المنزل مع ابنه بينما كانت زوجته وبناتها يعملن لدى المستأجرين وراح يحادث ابنه ناظراً إلى نوافذ العمارة المتلألئة بالأنوار المتعددة الألوان .

ـ ها قد بات بيتنا جميلاً جداً أليس كذلك يا بني ؟

ـ أي بيت يا أبي ؟

ـ ماذا ؟ ! ، بماذا تهذي ؟ ، بيتنا ! . . .

ـ يا أبي ، على ما أعتقد لم يعد هذا البيت لنا .

استشاط الأب غضباً .

ـ ماذا ؟ أليس بيتنا ؟ لا تتفوه بهذه الحماقات .

ـ ياأبي لم يعد بيتنا على ما أظن ، لأننا لا نسكن فيه ولا نعبر حديقته ولا نشرب من مائه حتى .

ـ صرخ الأب قائلاً :

ـ لكن ، وهوالمهم إن البيت بيتنا

وأخرج من جيبه ورقة مطبوعة ملوحاً بها وقال :

ـ وها هو سند تمليكه ، انظر إنه باسمي وأنا أدفع ضريبته السنوية ، هيا أغرب عن وجهي أيها الولد العاق وغداًسأتبرأ منك .

كان الأب يلوّح بتلك الورقة ويصرخ بأعلى صوته عندما خرج الولد الشاب من باب الخيمة مطأطئاً رأسه .

ـ أيها الولد الخائن ، ليس لدي ولد مثلك . سأتبرأ منك . هذا بيتنا ، بيتنا ، وهذا سند تمليكه .

أعتقد أنكم تعرفتم على البيت الذي عشنا فيه ، هذا البيت الذي ورثناه .

كم هو سافل !!

آه ه ه ، آه !! أنت لاتعرف كم هو سافل ومنحط يامسيو ، لايمكنك الثقة بكلامه ، شخص تافه لايساوي عشر ليرات ، خاصمته منذ سنوات طويلة ، حتى تحية الصباح لم أعد ألقيها عليه ، لو شرحت لك عن أحابيله لاحترت ، والله لاحترت ، لكن رجاء لاتخبر أحداً عما أفصحت لك عنه لأنني لاأرغب بنشر سفالاته ، صاحبك هذا يا مسيو تعرّف ذات يوم على إحداهن ، لنقل إحدى الفتيات ، حيث قدم نفسه لها في حينه على أنه عازب ، مسكينة هذه الفتاة ، ومن أين لها أن تعرف ؟ خاصة وأن هدفه الزواج ، كانت جميلة جداً ، لو دخلت مسابقة اختيار ملكة الجمال لفازت باللقب دون ريب . ذات يوم أتاني صاحبك هذا ، لكن ، كالميت .

سألته :

ـ مابك ، لمَ أنت هكذا ، هل أصابك مكروه ، وما الذي أوصلك لهذه الحالة ؟

أجابني باكياً :

ـ سأقتل نفسي ، لا لن أستطيع الحياة بعد ذلك .

ـ تمالك نفسك ، لاتبك ، عيب ، أنت رجل ولديك أولاد ، حرام لمَ تعذب روحك ، قل لي ماذا حصل ؟ ! والله يامسيو ظننت أن مصيبة ما حلت به لها علاقة بالشرف أو أن تلك الفتاة قطعت علاقتها به بعدما عرفت أنه متزوج ، صاحبك هذا يامسيو ! ، والله معتوه ، هكذا ، يود أن يقضي أيامه مع فتاة غضة بعمر الزهور .

ـ آخ لو أستطيع نيل مرادي ، ليلة واحدة فقط ، لتنازلت عن كل أملاكي .

هكذا كان يقول دائماً ، ولكن ، أتدري كم يملك ؟ قل عشرة ملايين أو خمس عشرة مليون ليرة .

تمسك بي صاحبك هذا يامسيو وراح يستجديني قائلاً :

ـ أرجوك انقذ حياتي ، ساعدني بالله عليك فأنت الوحيد القادر على حل هذه المشكلة ، حاول أن تجد لذلك سبيلاً ، سأمنحك كل ماتريد ، ليلة واحدة فقط ، فقط ليلة واحدة لاأكثر . قل لي لمَ لاتسافر أنت وزوجتك خارج البلاد لقضاء الأجازة السنوية ، على نفقتي الخاصة ياأخي ، أو إلى أي مكان تختاره .

ـ حسناً ، لكنك متزوج ولديك أولاد ! .

ـ حتى سيارتي سأضعها تحت تصرفك ، كذلك سائقي إن أردت .

هذه الفتاة التي أحبها كانت أصغر من ابنته ، لمَ تعطيه الضوء الأخضر طالما هو أكبر من أبيها ؟

لكن لمَ لا أساعده ؟ ، أليس هو صديقي ؟ ، لذلك فكرت بالحل ، والحل الوحيد هو قريب زوجتي ، شاب مقطوع من شجرة كما

يقولون ، منحط ، إلا أنه جذاب ووسيم ، يأتي بين الفينة والأخرى ليقول لي : «ساعدني ياصهري في إيجاد عمل ما ، فلديك العديد من الأصحاب ذوي المراتب العالية ، كي أحصل على خبزي من عرق جبيني» نعم تذكرته وبعثت إليه .

- تنفذ ماأشير عليك به كي أجد لك عملاً مميزاً . بالفعل قام الصبي بتنفيذ الخطة التي رسمناها بحذافيرها وبذلك وقعت الفتاة في الشرك خلال أسبوع واحد فقط .

استطعنا إقناع الفتاة بأن حفل الخطوبة سيكون مقتصراً على الأصدقاء المقربين فحسب أما العرس فسيكون فاخراً ، وافقت الفتاة على كل ذلك ، وصاحبنا هذا «البندوق» يامسيو كان مهيئاً لكل شيء فلديه منزل مخصص للأمور الخسيسة والدنيئة . وبحجة حفل الخطوبة استقدمنا تلك الفتاة إلى المنزل المذكور .

كنا مجموعة أصدقاء ، أكلنا وشربنا حتى الساعات الأولى من الصباح ، أثناء ذلك فعلت الخمرة فعلتها بتلك الفتاة ، لذلك حملناها إلى غرفة النوم ومددناها على السرير . دفعت لذاك المنحط بعض النقود كي يغادر المنزل بعدما نفذ مهمته . والله يامسيو دفعت له من جيبي الخاص ، خرجنا من البيت بعدما تركناهما لوحدهما . وفي الصباح فتحت المسكينة عينيها لتجد نفسها في سرير ليس سريرها ، مع صاحبك هذا وقد حصل ماحصل ، مسكينة هذه الفتاة ، وماذا عساها أن تفعل ؟

أما أنا فقد أعددت وثائق السفر كما وعدنا صاحبك وحضرنا حقائبنا وفيما بعد اتصلت به :

- نحن جاهزون للسفر ، لذلك أرجوك أرسل السيارة مع السائق . أتعلم بماأجابني صاحبك ؟ ، والله لن تصدق : أنا بحاجة

للسيارة ولن أستطيع التخلي عنها الآن . ذكرته بما وعد . . فأجابني مستهجناً :

- ولمَ السيارة وماذا فعلت كي أعطيك السيارة . على كلٍ الفتاة كانت معجبة بي ، وإلا ماالذي دفعها أن تدخل سريري هاه ؟ !

دهشت كثيراً مما سمعت حتى تجمد الدم في عروقي واختفى صوتي ، كم هو حقير صاحبك هذا ياسيو ، كذاب لايؤتمن جانبه .

تصور أنه أتى إليَّ بعد فترة ، تجاهلته ، وهذا شيء طبيعي لما بدر منه ، تصور أنه يود إشادة مصنع ويرغب باستيراد التجهيزات والمعدات من أميركا إلا أنهم لم يمنحوه العملة الصعبة اللازمة لإنجاز هذه العملية ، يلزمه بحدود ٢٩٠ ألف دولاراً . يومها كان سعر صرف الدولار ٢٨٠ قرشاً طبعاً هذا السعر الرسمي ، بينما في السوق السوداء حوالي عشر ليرات . هذا يعني أنه سيكسب من فرق السعرين حوالي /٢ مليون ليرة/ .

- منذ عام لم أحصل على عملة صعبة ، تذكرتك فأنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي في حل هذه المشكلة ، سأجعلك شريكي في المصنع إن نجحت .

والله ياسيو ، كما قلت لك سافل لايؤتمن جانبه قد يجعلك شريكه ، لكن ، وبقدرة قادر يغرقك بالديون لذلك قلت له :

- لاأقبل بالمشاركة ! !

- إذن أعطيك نصف مليون ليرة .

تركت جميع أعمالي وركبت الطائرة متجهاً إلى أنقرة وهناك عملت المستحيل لإقناع وزير المالية ، شرحت له عن الأهمية الوطنية لهذا المصنع ودوره في تطوير الاقتصاد الوطني ، والله

انفلقت كما يقولون حتى أقنعته ، عدت مباشرة إلى اسطنبول بعدما حصلت على الموافقة إلا أن صاحبك هذا اختفى عن الوجود ، تصور طالبته فيما بعد بالمصاريف على أقل تقدير أتدري ماقال ؟ !

- وهل تمت العملية بصورة غير شرعية وقانونية أو ليست من حقي هذه الأموال الصعبة .

كم هو عديم الضمير آه ه ه . . . لايمكن أن تثق به .

تصور أنه أتاني ذات يوم وكأنه لم يفعل شيئاً . وكأنه لم يخطئ بحقي ، معلناً عدم وجود سيولة نقدية بين يديه ، رغم امتلاكه معملاً وشقة سكنية وأنه سيعلن إفلاسه وسيغلق معمله .

- آخ لو كنت أملك نصف مليون ليرة فقط لحققت مرادي سأدفع أية نسبة حتى لو بلغت ٣٠٪ مقابل حصولي على المبلغ المذكور . ساعدني في ذلك ياأخي وإن أسديت لي هذا المعروف فشقتي الموجودة في بويوك أدا «الجزيرة الكبيرة» ستكون تحت تصرفك .

اتجهت إلى أنقرة رغم مرضي وهناك رحت أبحث عن شخصية بارزة في قيادة حزبنا له علاقات وصلات واسعة . وبالفعل ، استطعت في نهاية المطاف الحصول على موافقة قرض بالمبلغ المذكور بنسبة فوائد قدرها ١٢,٥ ٪ .

من يقوم بهذه الخدمة في هذه الأيام ولمن ؟

أتى الصيف وبقدومه رحنا نستعد كي نمضي فصل الصيف في دارة صاحبنا الصيفية .

ذهبت إليه للحصول على المفتاح ، لكن ، أتدري ماقاله ذاك المنحط يامسيو ؟

- أما كان من حقي الحصول على ذاك القرض ، أم كان هبة

وحصلت عليها عن طريقك .

بعد فترة أتاني صاحبك المنحط يامسيو يعلمني بأنه تقدم لمزاد في إحدى دوائر الدولة وفيما لو رسى عليه فسيحصل على ثلاث ملايين ليرة على أقل تقدير وأنت تعلم ماذا يعني هذا

المبلغ يامسيو ؟ . ملايين حقيقية ، ليست كعملة اليوم . ولهذا السبب قال لي يومها :

ـ ساعدني في ذلك وسأشتري لك قطعة أرض كي تبني عليها .

صديقي ـ وكما علمت فيما بعد ـ كان أحد المسؤولين عن ذاك المشروع لذلك اتجهت إليه وشرحت له الموضوع من ألفه إلى يائه . وعدني بالمساعدة على الرغم من المخالفة القانونية وكل ذلك بسبب العلاقة الوشيجة التي كانت تجمعنا أيام الدراسة ، وقال لي يومها إنه سيعمل كل مافي وسعه لإنجاز ذلك ولكي لاتحدث أية مفاجأة سيقوم بالضغط على الشركة المنافسة للانسحاب من هذا المزاد وبذلك يبقى صديقي لوحده .

وبالفعل هذا ماحصل ، وصاحبك هذا يامسيو لا حس ولاخبر ، ذهبت إليه كي أستعلم عما جرى ، أتدري ماقال ؟

ـ هذا المزاد . . يحق للجميع الاشتراك به ، عرضي كان الأفضل لذلك فزت به ولافضل لك بهذه العملية .

هكذا هو دائماً سافل ومنحط وواطيء وساقط تستطيع أن تقول بأنه كسر الرقم القياسي العالمي لهذه الصفات ، إسألني عنه فأنا أعرفه جيداً .

هل تعلم كيف انفصل عن زوجته ؟ ، لاتعرف هاه ؟ حسناً سأقول لكن رجاءً لاتقل لأحد ، كان يطلب الانفصال عن زوجته ، إلا

أنها ترفض . حاول أن يشتري موقفها لكن عبثاً . وفي نهاية المطاف وكما هو عليه في كل مرة التجأ إلي طالباً الانفصال عنها واعتاقه منها .

وبما أنني أعرفه تماماً ، وأعرف كل سفالاته السابقة لذلك أخذت الأمور بروية وتؤدة .

ـ سأكتب لك شقة كاملة في منطقة الششلي فيما لو خلصتني منها .

لم تكن لي حاجة آنذاك للشقة ، إلا أن ابنتي كانت على أبواب الزواج لذلك أتاني هذا العرض في الوقت المناسب ، وحياتك يامسيو لم يمضِ على هذا الحديث شهران وصاحبك هذا أصبح حراً طليقاً ، ألم أقل لك عن ذاك المنحط قريب زوجني ، أد..ته إلى بيته بصفة موظف في مصلحة مواسير الغاز وبعد دخوله قام بتنفيذ مارسمته له إذ دخل غرفة النوم وخلع كل ثيابه يعني «ربي كما خلقتني» . ومن ثم دخل السرير ، ماذا يمكنها أن تفعل أمام هذا الموقف الدراماتيكي ، شدهت وصدمت ، لم ينته المخطط عند هذا الحد إذ أننا اتصلنا مسبقاً بقسم الشرطة عن هذه الواقعة وعندما داهمت الشرطة المنزل ألقت القبض عليهما بالجرم المشهود متلبسين بتهمة الدعارة . وهكذا تطلقت المسكينة بعدما أصبحت شر . . .ة في أول جلسة من جلسات المحكمة . لكن أتعلم ماقاله لي صاحبك يامسيو ، لن تصدق .

ـ لقد لوثت سمعة زوجتي وألقي القبض عليها وماذا فعلت أنت هاه ؟ ! !

كم هو عديم الضمير ، كم هو حقير كل ماحدثتك عنه حصل عقب الحرب العالمية الثانية ، لكن ، رجاء لاتقل لأحد .

تصور أن الحكومة يومها اتخذت قراراً بمنع السفن من الحركة كيف لا والحرب قد ألقت بكاهلها على الجميع . وصاحبك هذا كان موقعاً عقد تصدير الخردة المعدنية إلى إحدى الدول الأجنبية . وبسبب ذاك القرار لم يستطيع تصدير الكمية وبذلك تجمدت كل مستحقاته استجداني يومها وقال لي :

ـ أعطيك ماتريد فيما لو حلت مشكلتي . والله لو طلبت منه المليون لدفعها ، لكن ، تركت ذلك لذمته وأخلاقه .

تصور أنه عرض علي مائة ألف ليرة طرت إلى أنقرة وخلال أربع وعشرين ساعة قمت بحل هذه المعضلة أبرقت له مهنئاً ومبشراً . لكن أتدري ماقاله لي بعد عودتي .

ـ لقد حصلت على موافقة الشحن قبل سفرك !

لذلك قطعت علاقاتي معه يامسيو ، حتى تحية الصباح لم أعد ألقيها عليه لأنه سافل ومنحط أعرفه جيداً يامسيو .

الفهقة

ورد تعريف هذه الكلمة في القواميس التركية على الشكل التالي :

«رد فعل لاإرادي ينجم عن تقلصات الحجاب الحاجز وانضغاطه على الرئتين ومن مسبباته امتلاء المعدة الزائد بالطعام» «التخمة» أو بسبب انعكاسات نفسية وهذا الفعل يصدر على شكل «هق ، هق»

الجدير ذكره هنا أن هذا التعريف موجود في جميع القواميس والمعاجم الأخرى أيضاً .

أوردت هذا التعريف لا لكي أزيد من معلوماتكم بل لكي أنفس عن مصائبي .

إخفاقات عدة واجهتني ولكن أكثرها مرارة :

١ ـ عملي

٢ ـ اختياري لزوجتي

أنهيت امتحاناتي بشكل جيد ولم يبق سوى مادة التاريخ

لاسيما أن هذه المادة من أحب المواد وأقربها إلي لذلك لم أرتعب إطلاقاً أثناء التحضير .

يوم الامتحان طرد مدرس المادة سبعة طلاب من أصل ثلاثة وعشرين طالباً دخلوا قاعة الامتحان قبلي ولحق بهم حتى نهاية الممر وكل هذا بسبب فشلهم أمام اللجنة الامتحانية ، كذلك ضرب ستة آخرين أما الباقون فقد تم بصعوبة بالغة تخليصهم من بين يديه .

خجل ذلك المدرس كثيراً يومها أمام اللجنة المؤلفة من خمسة مدرسين وكما تعلمون فإن أي مدرس كان يرغب أن يُكّن له كل الود والاحترام من اللجنة المذكورة .

ضمن هذه الأجواء الدراماتيكية دخلت قاعة الامتحانات ووقفت أمام أعضاء اللجنة والمدرس .

ابتسم مدرسي حال رؤيته لي وقال لهم بعد أن مسح الزبد من على شفتيه .

- أيها السادة ، هذا أفضل طالب لدي ، لذلك ، اسألوا ماتشاؤون .

رفع أحد الجالسين خلف الطاولة المغطاة بغطاء قماشي أخضر اللون رأسه عالياً وحدق بي ملياً من خلف عدستي نظارته ثم سألني :

- متى جرت معركة ملازغيرت ؟

كم كان هذا السؤال سهلاً لدرجة أن طلاب المرحلة الابتدائية يستطيعون الإجابة عليه .

لكن ، قبل أن أتفوه بأية كلمة صدر من فمي «هق» أستغرب

أحد الممتحنين من ذلك وقال :

ـ ماذا ؟

ـ هق .

لاأدري ماسبب صدور هذا الصوت ، هل بسبب فرحتي وسروري من سهولة السؤال ، أم بسبب تخوفي من تغير نظرة المدرس إلي واهتزاز ثقته بي .

على كل راحت هذه الأصوات تتكرر باستمرار طارحة الغازات من أحشائي الداخلية .

ـ هق ! . . هق . . هق .

ـ ماذا تقول يابني ؟

ـ هق ، هق .

ـ ملازغيرت ؟

ـ هق .

ـ أية سنة ؟

ـ هق ، هق

حاولت كثيراً أن أضبط نفسي عليّ أجيب على هذا السؤال ولكن بدون فائدة .

ـ هق ـ هق .

كنت سأفقد عقلي بسبب ذلك ، ارتبكت كثيراً ، ولكن هذا غير مهم إطلاقاً لأن الأهم هو مدرس التاريخ الذي تغيرت سحنته والذي حاول جاهداً تغطية ارتباكه بقضم أظافر يده .

ـ في أي عام ؟

ـ هق . .

أخذ أعضاء اللجنة بالضحك بل بالقهقهة عالياً بينما سألني أحدهم :

ـ هل أنت كبش يابني حتى تهقهق بهذا الشكل ؟

لم يستطع أستاذي ضبط أعصابه وماكان منه إلا أن صرخ بأعلى صوته :

ـ هيا انصرف من هنا .

خرجت من الباب مخلفاً ورائي صوت ارتطام لاأدري أهو شيء ماأصاب مدرس التاريخ أم ابريق ماء كُسِر أو زجاجة حبر سقطت .

وبعد ذلك دبت حركة غير طبيعية في الممر .

البعض يركض ويقول «استدعوا الطبيب» ، قلت لهم :

ـ لاحاجة بي لطبيب كل شيء على مايرام ، لقد توقفت الفهقة .

ـ الطبيب ليس لك إنما لمدرس التاريخ الذي أصابته أزمة صحية .

منذ ذاك اليوم والفهقة تنتابني عندما يسألني أي كان حول التاريخ . حتى لو كان السؤال عن اسم اليوم ستكون الإجابة هق ، هق لمدة نصف ساعة .

وبسبب ذلك لم أستطع إتمام المرحلة الثانوية وماكان أمامي إلا أن أتبع رغبتي في هذه الحياة أي أن أصبح ممثلاً مسرحياً ، وهذا مادفعني إلى المسرح المركزي في المدينة . وهناك أعجبوا بصوتي الجهوري وطولي المناسب وشكل وجهي ، لذلك طلبوا مني أن أعد أي دور أحبه من أية مسرحية كانت وأقوم بأدائه أمامهم .

إن شخصية أي ممثل تبرز من خلال قدرته على تقديم مسرحيات شكسبير . لذلك عملت طيلة الأسبوع حتى حفظت مسرحية هاملت عن ظهر قلب .

كنا نقطن يومها في الطابق الثالث ، أظنكم تعرفون نص مسرحية هاملت خاصة ذاك الشاب الدانمركي «هاملت» والذي كثيراً مايكرر عبارة TO BE OR NOT TO BE وقفت يومها أمام المرآة ورحت أقدم شخصية هاملت وبأعلى صوتي حتى بات مسموعاً لجميع الجوار في البناء فظنوا أن شيئاً ماأصاب عقلي ، وهذا الشيء بالذات يعتبر أكبر نجاح حققته لأن هاملت أيضاً كان معتوهاً هذا يعني أنني استطعت تقمص شخصيته بنجاح ، لكن ياللأسف لم أستطع نقل هذا النجاح إلى أرض الواقع . ففي يوم الامتحان اجتمع ثلاثة من كبار رجال المسرح ومخرج مخضرم ، طلبوا مني تقديم الدور الذي اخترته . وقفت على المنصة بينما أخذ الممتحنون المقاعد الأولى عيناي مصوبتان نحو الأعلى ، تماماً إلى نقطة التقاء السقف مع الجدار ، مددت يدي اليمنى ، في اللحظة التي كنت سأبدأ بتقديم المقطع الذي اخترته بـ TO BE OR NOT TO BE في تلك اللحظة بالذات انتابتني فهقة تراجيدية

ـ هق ! . .

توقفت عن الأداء قليلاً علها تتوقف ، لكن بالعكس راحت تزداد أكثر فأكثر . هق ، هق ، هق .

كنت أحاول جاهداً منعها من الخروج بينما أخذ الممتحنون ينظرون إلى بكل انتباه .

ـ هق توبي . . أو رهق نات كراهقشين هق .

ماهذه المصيبة اللعينة التي حلت بي

ـ كفى ، كفى أشكرك

هكذا طلب المخرج مني التوقف ، لكن الفهقة لم تتوقف .

ـ هق . هق .

ـ شكراً ياأفندي لقد فهمنا «ميرسي» ياسيد .

عندما هممت بالخروج توقفت الفقهة ولذلك سألتهم :

ـ ماهي نتيجة الامتحان ؟

ـ أجابني المخرج قائلاً :

ـ بنجاح ولكن دع عنوانك في الديوان وعندما نجد لك دوراً فهقياً مناسباً ستكون أول المرشحين .

لقد تخبطت كثيراً في الإخفاقات ولم يعد أمامي مأستطيع عمله ولذلك رغبت بالزواج عليّ أستطيع أن أفعل شيئاً . فكما هو معروف بأن الرجال الذين هم من طينة . الفقر مثلي يحاولون الزواج من فتاة غنية قد تساعدهم في هذه الحياة . وبفضل جهود الأصدقاء وجدت فتاة غنية جداً . والدها يملك أموال قارون ، عائلتها محافظة .

المهم في الأمر أننا أعجبنا ببعضنا البعض ، وكذلك والدها إلا أنهم لم يكونوا من أنصار «الزمن كفيل بخلق التفاعل والتعارف بين الشاب والفتاة» .

لذلك قالوا : على الشابين أن يتقابلا ويتفاهما . والمصيبة هنا أن الفتاة لاتحب الخروج ولاالدخول ، لامسرح ولادار سينما لذلك فرض على الذهاب إلى بيتهم .

وفي اليوم الموعود ذهبت إليها وهناك جلست أمها معنا ، لم تطل جلستها إذ سرعان ماقامت لسبب ما وبعد خروجها ضغطت

الفتاة على يدي قائلة :

ـ أهلاً وسهلاً بك .

ـ وبك أيضاً .

رحت أسترق النظرات بينما هي تنظر إلى الأرض خجلة . وبما أن القرار النهائي للفتاة لذلك لابد من كسب ثقتها لكن ، من أين أبدأ وماذا أقول ؟ !

وأنا في هذه اللحظة العصيبة عاجلتني الفهقة :

ـ هق .

في البداية لم تعرف الفتاة مصدر الصوت لذلك سألتني مستفسرة :

ـ نعم ماذا قلت ؟

ـ لاشيء هق ، لاهق هق .

ـ لم أفهم .

ـ هق .

ـ أخفت ضحكتها بيدها كي لاتحرجني وأنا بدوري وضعت كفي على فمي كي أخفف من هذا الـ هق . تصوروا شاباً وفتاة يجلسان لوحدهما وكلاهما وضعا كفيهما على فمهما .

فتحت الأم الباب وقالت مستغربة :

ـ مابكما هاه ؟

فرت الفتاة من الغرفة ضاحكة والفهقة مازالت تنتابني بين لحظة وأخرى .

وبعد عدة تحذيقات استطعت وبصعوبة أن أقول للأم مودعاً

مع السلامة .

توقفت الفهقة مباشرة بعد خروجي . وفي البيت سألوني :

- هل تفاهمتما ؟

- بدوري تفاهمت معها إلا أن هذا لايهم لأن القرار لها أولاًوأخيراً .

في اليوم الثاني أبلغتني تلك الفتاة قرارها بالموافقة واستعدادها للزواج .

ماالذي دفعها للموافقة أتكون فهقتي ؟ ، لاأدري بعد خمسة عشر يوماً عسلاً من الزواج سألتني

- لم لاتفهق ؟

- ليست برغبتي لأنها لاإرادية وعندما تأتي اللحظة المناسبة سأقوم بذلك :

- خدعتني إذن هاه . كذبت علي

أتدرون لماذا ؟ لأنها عشقت فهقتي واعتبرتها وسيلة تسلية ولهو ، لذلك كانت تضحك كلما أفهق ، كيف لا وهي فتاة محافظة نادراً ماتخرج من المنزل لقد تحولت زوجتي بسبب هذه الملعونة إلى صورة في صدر البيت ، وفيما بعد طلبت التفريق .

ماذا أفعل ، وكيف يمكننا حماية هذا العش من الانهيار . حسناً طالما أن الفهقة هي السبب لم لاأحاول أطلاقها بالفعل رحت أطلقها غصباً كي أروح عنها وأضحكها وبذلك أحمي هذا العش من السقوط

أوف هاأنذا أحدق كما ترغبين .

لا ليست حقيقية. لن تخدعني ثانية. فالقديمة كانت واقعية

وكنت تصدرها من أعماقك . سنفترق لامحال .

ـ وماذا ستقولين للقاضي ياعزيزتي ؟ أتطلبين التفريق بسبب الفهقة . لن تستطيعي ، عدا عن ذلك فأنا أحذق كما ترين .

ـ نعم ، إلا أنها ليست طبيعية وسأقول أنك أهملتني . أتدرون ماذا قالت هذه الفتاة المحافظة للقاضي :

ـ ياسيدي زوجي لايستطيع القيام بواجباته الزوجية .

لن أصبر عليه أكثر من ذلك . لقد طفح بي الكيل ولن أستطيع العيش معه بعد ذلك. كم تمنيت يومها أن تنشق الأرض لتبتلعني من الخجل ، فلم أكن أنتظر منها هذا الموقف . ولعل مازاد خجلي سؤال القاضي :

ـ ماقولك ياهذا بما تدعيه زوجك ؟

الشيء الوحيد الذي استطعت قوله هو «هق» هكذا تحولت أمام القاضي كعصفور إسحاق لايصدر من فمه سوى «هق ، هق ، هق»

التفت القاضي ليقول لزوجتي .

ـ نعم ، فهمت

قالت زوجتي :

ـ أتخلى عن الدعوى ، لأنهم حرضوني عليه أما أنا فأحبه كثيراً ونعيش سوية مثل السمن والعسل .

رمقتني بنظرة ملؤها الأمل . إلا أنني لم أستطع أن أتفوه ، لذلك عبرت لها عن عدم رغبتي ، باشارة بيدي .

خرجنا من بناء المحكمة . وانقطعت الفهقة . تأبطت زوجتي ذراعي .

ـ آه كم كانت رائعة ! . . نابعة من أعماقك .

حاولت مراراً ، أرسلت رسلها إلا أنني رفضت كل ذلك ، انفصلنا عن بعض .

منذ ذلك اليوم وهي تقول إنها انفصلت عني بسبب فشلي في مهمتي الزوجية .

وأنا بدوري لم أتزوج . وهكذا أفقدتني الفهقة اللعينة زوجتي وعملي .

بصري استربتيز

استيقظ بصري استربتيز على صراخ بقال الحي .

أف . . ألا يستطيع المرء أن ينال قسطاً من الراحة يوم عطلته الأسبوعية ؟ سأهج . . سأسافر ، سأهرب . . تذمر بصري كثيراً .

ردت عليه زوجته قائلة :

ـ إذا كنت راغباً في الهروب فلا عليك ، ولكن لتكن على بينة من أمرك فأنا سأهرب قبلك . . والآن ماذا ستقول للبقال . هاه ؟ !

ـ معه حق البقال فنحن منذ شهرين نحاول تسديد ماعلينا ولكن . .تصوري كلها اثنتان وستون ليرة وأربعة وثلاثون قرشاً ! !

ـ طبعاً معه حق .

ـ قولي لأمك لست هنا . .

ـ لا ، لن أقول ، قد يسيء الأدب أكثر . .

ـ قولي لأنك أن تتصرف . .

ـ غريب أمرك هل تريد من هذه العجوز وبعد هذا العمر أن

تكذب ؟

فتح بصري الباب مرغماً ماذا يقول وماذا يفعل ؟

- لاتؤاخذني ياأتاناش أفندي ، أنت محق فيما ستقول اعذرني لم أستطيع تأمين المبلغ . .

- ولكنك وعدتني بأنك ستسدد ماعليك في مطلع الشهر كم من مطالع الأشهر مرت يابصري بيك ؟ !

- صحيح .

- هل تعلم أن من هذا المبلغ لن يبقى لي ولاحتى ليرتين ؟ !

- أنت محق .

- لقد مللت من المجيء إليك يابصري ! !

ايه هذا لايجوز !

- أعدك ياأتاناش أعدك يامسيو اتاناش إن شاء الله خلال الأسبوع . . .

- بربك يابصري بيك كم رقم تسلسل هذا الوعد ضمن الوعود ، هاه ؟ !

- الأخير أعدك للمرة الأخيرة .

خرج اتاناش من بيت بصري غاضباً يتوعد ويتهدد بينما دخل بصري إلى البيت مهلوساً يحدث نفسه . .

- ايه قاتل الله هذه الحياة .

فنهرته حماته . .

- لايجوز أن تتفوه بمثل هذه الكلمات النابية . .

كان بصري بيك هذا كحمل وديع ، تزوج وهو لم يتجاوز

الثانية والعشرين وقد حرمه الله من نعمة الإنجاب . . .

طُرِق الباب فقالت زوجته :

ـ لقد أتى صاحب البيت .

ـ ايه هيه ، يارب !

تذمر بصري بيك كثيراً ولكن وبصعوبة بالغة استطاع أن يقنع صاحب البيت ويصرفه .

ـ سأهرب /سأهج/ ، إلى أي مكان لايعرفني أحد فيه وسأتسول هناك نعم وهل يوجد شيء أحقر من التسول ؟

يدعونني بصري بيك ، أي بيك أنا ، هيا أعدي لي القهوة .

ـ تريد أن تشرب القهوة وهل لدينا بن ؟ لا بن ولا سكر .

ـ آه من هذه الحياة .

تدخلت حماته ثانية زاجرة إياه :

ـ اصمت . . ! اصمت وإلا ستغضب الرب . .

ـ أنا لم يعد يهمني غضبه لذلك فليغضب إن شاء . استغفرك ياربي استغفرك وأتوب إليك .

ـ سيأتي «السقا» بعد قليل .

ـ افعلوا ماتشاؤون ، كأنكم متفقون علي أن تجننوني كأنكم متفقون ضدي . .

طرق الباب . .

ـ هل السقا هو الطارق ؟

ـ لا ، أجير الفحام .

ـ قولي له بصري ليس هنا قولي بصري مات له الرحمة منكم

من بعده طول البقاء ، استغفرك يارب . آه من هذه الحياة . . استغفرك يارب ، من أخذ من جيبي الليرتين والنصف ؟ !

ـ أنا . .

ـ ياحياتي كيف تسمحين لنفسك بذلك . ؟

ـ آه ه ه . . هذا جزاء المعروف ماذا أفعل هل نموت جوعاً ؟

ـ آه ياربي . . آه من هذه الحياة استغفرك يارب . .

خرج بصري بيك إلى عرض الشارع دون أن يحدد سبيله والأنكى من ذلك بجيب خاو من أي متليك ! !

تساءل في نفسه كثيراً .

ـ ماذا أفعل ماذا أفعل ؟

وفجأة تذكر صديقه الحميم حمدي الذي لم يلتقه منذ سنوات عدة أضف إلى ذلك أنه مليء ويعتبر من ذوي رؤوس الأموال على كلٍ حمدي هذا صديق قديم بغض النظر عن باقي الاعتبارات . .

وحتى لو طلب منه مبلغاً بسيطاً ولو خمسون ليرة ألا يعطيه ؟ !

ـ سأطلب منه فكما يقولون الطالب شحاذ والمتمنع عن العطاء شحاذ أكبر .

وأخيراً قرر بصري الذهاب إلى حمدي على الرغم من عدم امتلاكه لما يسمح له بركوب التراموای أو الحافلة حسناً سيذهب إليه حتى لو اضطر للسير على قدميه . . .

ـ ولكن لأفترض أنه ليس في البيت . .تفوه ! آه من هذه الحياة اللعينة . . استغفرك يارب سأنتظره حتى يعود . . .

ولكن لأفترض ثانية أنه انتقل من شقته إلى شقة ثانية فماذا أعمل ؟ ايه ياربي آه من هذه الحياة . . وصل بصري ماشياً على

قدميه إلى بيت حمدي والليل ينسج أول خيوطه .

- واه ، يابصري ، واه ياحياتي ياصديقي العزيز أين أنت ؟ . . . من أين ظهرت . . ؟

استقبله حمدي استقبالاً رائعاً وطلب منه الجلوس في الشرفة حيث كان قبل مجيئه . .

أما بصري المسكين فقد توقف الدم في عروق قدميه من شدة الارهاق أما خواء المعدة فحدث ولاحرج .

- كم أنت رائع ياأخي بصري لقد جئت في الوقت المناسب فهذا ، «الزقوم» لايشرب إذا كان المرء لوحده هيا بصحتك !

لقد اكتوت معدة بصري الفارغة بالعرق حيث أن طاولة الشراب لم تحتو لا طعاماً ولا مازة حتى ، فقد كان هناك قضامة مالحة . .

ارتبك بصري قليلاً وبعد ذلك استجمع شتات قواه وسأل صديقه .

- أين هي زوجتك ياحمدي ؟ لقد استغربت عندما فتحت الباب لي امرأة لاأعرفها عسى أن تكون بصحة جيدة .

حرك حمدي يده في الهواء بشكل استعراضي وقال :

- أوهــ وووه . . . ! عن أية واحدة منهن تسأل ياصديقي لقد بدلت حتى الآن أربع نساء ، آه يابصري أو تظنني أحمقاً حتى أمضي حياتي كلها مع امرأة واحدة ؟ هل تظنني معتوهاً إلى هذا الحد ؟ انظر إلي هل أنا حمار ؟ ! هل أنا ثور ؟ ! هيا نشرب . . ! بصحتك

تغلغلت الخمرة في رأس بصري أما معدته فقد أخذت تقرقر من الجوع كيف لا ، وهو الذي لم يعتد على تناول المشروبات

الروحية تناولها للمرة الأولى يوم حفل زفافه ومرتين عند الأصدقاء وفي كل مرة كان يتناول نصف قدح لمشاركتهم في الشرب . . .

حسناً ماذا حصل له هذه المرة ؟ فقد كان يقلب القدح مفرغاً محتوياته في جوفه دفعة واحدة قد تكون رغبته باملاء معدته بأي شيء كان . .

شربا العرق حتى الساعة الحادية عشرة . لدرجة ان بصري لم يعد يعرف أين تقع معدته من جغرافيا جسده ، ليس هذا فقط بل أنه بالكاد كان يتمالك نفسه .

ولكن كيف يطلب مبتغاه ؟ ! ماذا يقول له ؟

ماأذل الاستدانة ؟ ! !

لقد فقد شجاعته ، إن طلب القليل سينفضح أمام صديقه وستنكشف حياته المزرية وإن طلب الكثير فقد يرده خائباً . .

ـ تفوه . . آه من هذه الحياة . . من هذه الحياة استغفرك يارب . . .

سأله حمدي :

ـ ماذا بك يابصري تغمغم بكلمات غير مسموعة ولامفهومة ؟ !

ـ لا . . لاشيء ،لاتهتم .

قرر بصري بينه وبين نفسه أن يغض الطرف عن الخمسين ليرة ، ولكن ماذا لو طلب ليرتان ونصف ، كيف سيذهب في هذه الليلة الحالكة التملة وهو لايملك شيئاً ؟

سأفر من هذه الدنيا . . سأهرب . . هيهيه يارب استغفرك آه من هذه الحياة .

ـ ماذا تقول ؟ ! أفصح لي مابك هيا لنشرب بصحتك ! حسناً سأنسى مسألة النقود ولكن لم لايقدم أي شيء من الطعام أسد به جوعي . . .

ـ هيا بنا يابصري نستقل سيارتي ونذهب إلى إحدى دور اللهو لن أدعك تفارقني هذه الليلة فهذه المرة الأولى نلتقي بعد أربعين عاماً سمعت أن إحدى الراقصات تخلع ثيابها قطعة قطعة وهي تؤدي فقرتها . .هيا ادلق قدحك . . . بصحتك . .

وصلا إلى السيارة يترنحان وكأن الأرض عاجزة عن حملهما بعد زجاجتين من الخمر .

ـ ماأسم هذه الرقصة يابصري . . ؟

أظن استربتيز أليس كذلك ؟ .

بصري بيك محتار . . . ماذا يقول لصديقه وكيف ؟ وماذا سيقول حمدي بعد هذه الفترة أتى إلي كي يقترض خمسين ليرة ؟ !

ايه ياربي . . آه من هذه الحياة . .كانت دار اللهو المقصودة تغص بالحضور لذلك وبشق الأنفس استطاعا أن يجدا طاولة فارغة . .

ـ جارسون ، افتح زجاجة عرق ، ولكن بدون مازه فقط قليل من البندق والفستق والقضامة ، هيا ياعزيزي بصري بصحتك تحمل إن إستطعت

آه لو يعطيني النقود لغادرت هذا المكان من فوري .

هيا بصحتك يابصري . .

إنطفأت الأنوار عدا بقعتي ضوء مسلطتين على خشبة المسرح. أخذت الفرقة بالعزف وصعدت الراقصة ! !

أخذت تخلع فستانها وهي ترقص ملعونة الوالدين ! ! . . نسي بصري بيك كل شيء نسي جوعه وتعبه حتى أنه نسي سبب مجيئه . .

خلعت حذاءها وبعدها الأساور والأقراط ، وقبل أن يتفوه حمدي بأية كلمة كان بصري سباقاً إلى رفع كأسه وقلبه حتى آخر قطرة . .

خلعت الشلحة والكلسات وبقيت بالسوتيان «والكيلوت» ! !

ـ بصحتك !

بصحتك ياحمدي . . بصحتك .

كانت تخلع ثيابها قطعة قطعة وترميها على طاولة خاصة أما السوتيان ذو اللون الأصفر فقد خلعته وألقت به عالياً ، حام قليلاًوحط بين يدي بصري كعصفور كنار أصفر ، كانت ترقص . وياربي . . . الكيلوت ! !

ـ هيا ياحمدي بصحتك . . الله ! بصحتك . .

عصر بصري عصفور الكنار بيديه . . بينما خلعت الراقصة آخر قطعة وبدت كما ولدتها أمها . . غطى القاعة صخب وضجيج من الصراخ والتصفيق والصفير من ناحية ومن ناحية أخرى أصوات الملاعق والكؤوس . تابعت رقصها واقتربت من بصري الذي كان يراقصها وقبلت جبينه المبلل بالعرق . . كما هي جميلة ابنة الحرام ! !

وفجأة ساد الظلام الدامس للحظات . . وبعدها لا راقصة ولاأحد . .

استند الصديقان العزيزان كل على الآخر . .

وصل بصري بيك إلى المنزل وهو لم يتذكر كيف ركب السيارة ولاكيف وصل إلى البيت .

وعندما دخل البيت أخذ يصرخ بأعلى صوته :

- هيا انهضي . . قومي . . أقول لك هيا انهضي . . لكن ماذا حدث لهذا الرجل الملاك ! ! ؟

- هيا اخلعي ! أقول لك اخلعي . . حتى أنت أيتها العجوز الشمطاء وإلا سأدوسكما بقدمي . .

أخذتا تخلعان ثيابهما وهما ترتجفان من الرعب .

- أقول لك أنت أيضاً اخلعي كل ماعليك أيها العجوز وإلا . .

خلعت حماته ثيابها حتى ظهر ثدياها ممطوطان متدليان . .

- هيا امشيا . . هيا اخرجا وإلا سأحرقكما . .

خرج الثلاثة عراة كما ولدتهم أمهاتهم إلى الشارع .

- هيا ارقصا . . ارقصا . .

أخذ بصري يرقص ملوحاً بكلتا يديه . .

ومنذ ذلك اليوم وبصري بيك يرقص عارياً حتى أطلقوا عليه لقب بصري السترتيز في مشفى الأمراض العقلية . .

زرق الحمام

كثيراً ماكنت أتواجد أمام الدوائر الرسمية ، في تمام الساعة الثامنة صباحاً ، قبل جميع الموظفين . لأن العمل يبدأ فيها في التاسعة . . وذلك بسبب معاملة حصر الإرث التي طال أمدها ومن خلالها تنامى عندي شعور الخوف معها «الأذنة والبوابين والخدم والحراس» . . هذا الخوف نابع من موقفهم تجاهي ، فقد كانوا ينظرون إلى هيئتي ظانين أني واحد منهم . فكم من مرة قاموا بطردي كي لاأسبب الإزعاج لأسيادهم .

ذات يوم . كان اثنان من الخدم منهمكين بتنظيف المدخل الرئيسي ، ولكي لايطرداني ، حاولت الاختفاء عن أنظارهما في إحدى الزوايا ، حيث أراهما ، ولايريياني . . أما المطر الغزير الذي كان يهطل وقتها . فقد تغلغل عبر شقوق حذائي إلى قدمي ، لكن هذا لم يكن مهماً بالنسبة إلي . . لأن مايهمني هو الحؤول دون ابتلال الأوراق داخل حقيبة اليد ، ولكن أية حقيبة ؟ كانوا يسخرون ويستهزؤون بي بسببها . . أجل . . كانت كبيرة كحقيبة الملابس لكنها لم تكن كذلك . .

كان الخادمان يتحدثان عن شيء ما عندما أسندا أداتي التنظيف إلى الجدار ، وأغلب الظن أن حديثهما كان يدور حولي لأنهما كانا ينظران بين الفينة والأخرى باتجاهي . .وكأنهما يقولان ، ها قد أتى ثانية . .

آه ه ه ! ! لوانتهت هذه المعاملة . لدفعت لهم حتماً . ليس بسبب حبي لهم ، بل بسبب كرهي وحقدي عليهم . فقد أحط بذلك من قدرهم وقيمتهم التافهة ، سأعطيهم أكثر من رواتبهم ، لكن ، يجب علي إمرار النقود أمام أعينهم عدة مرات قبل أن أدفع لهم . . . آه ه ه ! . . كم أتمنى أن يأتي ذلك اليوم . .

بعد الخدم . . قدم البوابون . . وحتى لايبصرني أحد منهم ، اختفيت ثانية في الزاوية الثانية . . نظرت إلى الساعة فوجدتها قد قاربت التاسعة . . هذا يعني أنه قد حان وقت حضور الموظفين . .

مرّ من أمامي أحدهم . .كان حليق الذقن يضع نظارة طبية . . لكني لم أعرفه على الرغم من معرفتي بجميع العاملين . في هذه الدائرة . . معظمهم بأسمائهم ومكان وطبيعة عملهم ، إلا هذا . . فكل ماأعرفه عنه أنه يأتي كل صباح متأبطاً حقيبة سوداء . . . وبيده جريدة تخفي «سفرطاساً» . . ابتسم عندما اقتربت منه وهذا ماشجعني على إلقاء التحية ، كنت واثقاً من رده على تحيتي ، بادرني الحديث قائلاً :

ـ لم كان بواب السيد المدير يؤنبك ويحاول طردك ؟ !

ـ متى كان ذلك ؟ !

ـ البارحة . . .

ـ ياسيدي . . أنت تعرف تماماً هذا النوع من الخلق ، فأنا لايجمعني بهم جامع ، لذا فكثيراً ماتجدني وإياهم في شجار

مستمر . .

توقف ونظر إلي مستغرباً . من أخمص قدمي حتى شعر رأسي . . قال :

ـ هيا بنا . . لقد انهمر المطر . .

ـ أستغفر الله . .

كنت أداري خجلي بعبارة «أستغفر الله» . . لكن الموظف لم يضحك حين ذكرتها في غير مكانها ـ بل سألني :

ـ هل هناك معاملة تحاول ! إنجازها لدينا ؟ . .

ـ نعم ياسيدي . . سنتان وأنا أراجع هنا . . طبعاً . . عدا أيام العطل الرسمية . .

ـ هيا . . ادخل معي حتى لاتبتل ثيابك أكثر من ذلك . .

سرنا معاً ، وصعدنا درجات المدخل الرئيسي الأربع . أثناء ذلك مرّ أحد الخدم يحمل صينية عليها قهوة ، اختفيت مباشرة خلف الموظف كي لايبصرني . .

حتى اليوم . . لم أكن أعلم أن في هذه المؤسسة طابقاً سفلياً «قبواً» نزلنا عدة درجات . . فوصلنا إلى ممر طويل منار بعدة مصابيح كهربائية . . عبرنا الممر ـ السرداب الذي شعرت أنه ممر لانهائي . . أو لنقل إنه نفق يمر تحت عدة أبنية . . أخيراً . . وصلنا إلى نهايته . . فتح الموظف الباب ، فتناهت إلى أنفي رائحة الأمونياك الواخزة ، التفت إلي متسائلاً :

ـ هل ستدخل معي ؟

أجبته :

ـ ألم تطلب مني ذلك ؟

ـ ولكن ياأخي هنا مرحاض ! !

ـ آه . .ظننت أنه غرفة مكتبك . .

ـ لا . . إنني أعمل هناك . .على كل . . أمسك أشيائي وانتظرني . .

انتظرته طويلاً حتى مللت . . وزاد شعوري بالملل عدم وجود أحد في هذا الممر الطويل . . وراح أملي بخروجه يتبدد شيئاً فشيئاً . . آه . . لو لم يترك أشياءه . . لعدت أدراجي . . مامعنى هذا الانتظار الممل ؟ الأدهى . . هو وقوع المحظور . . إذ أن أمعائي راحت تقرقر . . ثم . . دق ناقوس الخطر في فتحة شر . . لذلك أخذت بطرق الباب . . قال :

ـ تفضل . .

ـ العفو . . ولكن الباب موصد بإحكام . .

ـ طبيعي . . فهنا مرحاض . .

ـ ولكنك أنت الذي قلت تفضل . .

ـ آه . . نسيت نفسي وظننت أن في مكتبي . .

ـ ولكن ماذا عليّ فعله الآن ؟

صرخ بعصبية شديدة :

ـ ألا يستطيع المرء أن يأخذ قسطاً من الراحة هنا ؟

ـ ساعدني ، أحشائي تؤلمني ويجب علي دخول المرحاض . .

ـ انتظر قليلاً . . سأساعدك . .

ـ أفضل مساعدة تسديها إليّ . . هي خروجك كي أقضي حاجتي . . وإلا فإن حالتي ستسوء . .

أخذت أتململ من شدة الألم . . فحاولت الوقوف على قدم واحدة . . أثناء ذلك تناهت إلى سمعي أصوات وقع أقدام . . خجلت . . استدرت حتى لاأراه . . . ثم عرفت أنهما اثنان . .وعندما اقتربا أكثر سأل أحدهما الآخر :

ـ ماذا يفعل هذا الرجل هنا واقفاً على قدم واحدة كطائر اللقلق ؟

ـ على الأغلب . . يرقص . .

لم يكتف بتفسير صديقه . . لذا بادرني بالسؤال :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ إنكما تعلمان ماذا أفعل أمام المرحاض . .

فتح الباب وخرج الموظف مبتسماً وكأنه أتمّ عملاً خارقاً . . أما أنا فألقيت بنفسي إلى الداخل قبل أن يحدث مايخجلني طيلة حياتي . . لكن . . حدث فيما بعد ؟ خدعتني أمعائي ولم يكن فيها شيء . . لم كل هذا الألم إذاً ؟ بينما كنت أحاور نفسي فتح الباب . . خجلت لأن الذي فتح الباب . . امرأة . . قلت لها : ـ المعذرة ياسيدتي . .

سألت : ـ أين سليمان بك ؟

ـ ليس هنا . .

ـ ألا تعرف أين هو ؟

آه . . سليمان بيك ! كان هو ذاك الموظف الذي رافقته وكان هنا منذ قليل . .

ـ لقد كان هنا منذ قليل وذهب ، لكن إلى أين لاأدري . .

ـ ولكن . . كيف انحشرتما في هذا المكان الضيق ؟

(لقد كان المكان ضيقاً لدرجة أني تركت حقيبتي في الخارج)

ـ لا ، دخلت بعد خروجه ، سأخرج مباشرة إذا كنت مضطرة . .

ـ أنا لم أطلب منك الخروج . . بل أبحث عن سليمان بك . .

ـ وأين سأجد لك سليمان بيك هذا ؟ . .

انفجرت المرأة ضاحكة . . مما أخجلني كثيراً . . شعرت بشيء ما يتسلل في أوصالي فخرجت مباشرة . . ولكن صدمة كبيرة كانت بانتظاري عندما لم أجد حقيبتي التي كانت مليئة بكل وثائق حصر الإرث . فقدت رشدي ، ورحت أصرخ بأعلى صوتي وأنا أركض : سليمان بيك . . وبسبب طول الممر أخذ رجع الصدى يشكل مؤثراً صوتياً فنياً غريباً . . وقد عرفت فيما بعد أني كنت أركض في الاتجاه المعاكس . . وعندما وصلت إلى نهاية الممر وجدته متفرعاً إلى فرعين . . لذا فقد استدرت وركضت بالاتجاه الآخر . . ومع ذلك لم أهتد ، تذكرت أنه عندما دخلت إلى هذا المكان . . كان الدخول عبر سلم متعدد الدرجات . فكان علي البحث عنه ، حتى السلم لم أجده ، ذهبت نحو اليمين ، ونحو اليسار أيضاً ، فلم أجد السبيل إلى الخروج . فما كان مني ، إلا أن أجعل كلتا يدي بوقاً . وأصرخ بأعلى صوتي «سليمان بيك» . . تناهت إلى مسمعي مع رجع الصدى كلمة «نعـــــم» . . . حاولت ثانية . فسمعت نفس الشيء . لذلك حددت مصدر الصوت وأخذت بالاتجاه نحوه ، حتى وجدت نفسي أمام باب خرجت منه تلك المرأة التي فتحت عليّ باب المرحاض . . سألتها :

ـ هل وجدت سليمان بيك ؟

ـ أياً منهم تريد ؟

ـ لا أدري ، ولكن مايهمني هو سليمان بيك . .

ـ ياعزيزي ، هم كثر في هذه الدائرة ، أيهم تريد ؟

ـ الذي أخذ حقيبتي . .

ـ حقيبتك أيضاً ؟ ! إني أرجوك أن تخبرني عن مكانه إذا وجدته لأني أبحث عنه أيضاً . .

ـ عدم المؤاخذة ، كيف يمكنني الصعود إلىالطابق العلوي ؟

ـ عبر السلم !

ـ أكيد . . عبر السلم

تركتها وأخذت أبحث عن السلم . . لكنني لم أعثر عليه . . فعدت أدراجي لأسألها ثانية . . غير أني لم أجدها فلم يكن أمامي إلا أن أشكل من يدي بوقاً وأصرخ ثانية بأعلى صوتي «سليمان بيك» .

سمعت الصوت نفسه «نع . . . . . .م» . . اتجهت بشكل مستقيم نحو مصدر الصوت فإذا بي أمام المخرج . . . سررت كثيراً . . وأخذت أقفز كل عدة درجات دفعة واحدة . .

الموظفون في الطابق العلوي كانوا في حالة غليان . . البعض يذهب والآخر يعود . . أما أنا فلن أخرج حتى لو ضربني بعض الأذنة وطردني . . لملمت شتات شجاعتي واقتربت من أحدهم وسألته بشكل جلف :

ـ أين سليمان بيك ؟

آتت طريقتي في الحديث ثمارها . . فقد أجابني مباشرة ظاناً أني شخصية مهمة :

ـ مكتبه في الطابق الثالث . . الأول من الجانب اليساري . .

أخذت أنهب الأرض نهباً حتى وصلت غرفة سليمان بيك . . دخلت مباشرة رغم معارضة البواب . . كانت غرفة فسيحة جميلة ، مفروشة بشكل أنيق رائع . . وخلف الطاولة الكبيرة جلس رجل في مقتبل العمر . . وكان مرتدياً ملابس أنيقة . .وقف مباشرة حال دخولي . . واقترب مني وضغط على يدي مرحباً . . كان مؤدباً للغاية . . حتى أنه طلب مني الجلوس بكل رقة واحترام . . جلست . . غير أني كنت مضطرباً . . خجلاً . . قالت :

ـ أبحث عن سليمان بيك . . ياسيدي . .

ـ أنا سليمان . .

ـ لكنك لست الذي رأيته في المرحاض . .

ـ قد يجوز أنه سليمان آخر . . ماذا تريد منه ؟

ـ لقد أخذ حقيبتي . .

ضرب بيديه كلتيهما على زجاج الطاولة وقال :

ـ كيف أعطيته الحقيبة ؟ . .

أخذت أشرح له كيف تم ذلك . . سألني مرة أخرى : ومن هو هذا السليمان بيك ؟ هاه . . إذاً الشخص الذي يأخذ الحقائب اسمه سليمان . .

فرحت كثيراً من السيد المدير وقلت له :

ـ نعم إنه هو . . وهل تعرفونه ياسيدي ؟

أثناء ذلك طرق الباب ، ودخل البواب الذي حاول منعي من الدخول ، بصحبته موظف ذو مظهر أنيق . . وقف البواب قرب الباب باستعداد ، أما الموظف فقد اقترب من المدير وأخذ يهمس في أذنه . .

كان يرمقني بنظرات جانبية غريبة . . وهذا ماجعلني أعتقد أنه يتحدث إلى السيد المدير عني . . أما سليمان بيك فكان ينظر إليّ بين لحظة وأخرى . . أثناء مناجاتهما ، ارتطمت كلمة «مجنون» بصيوان أذني أكثر من مرة . . بعد ذلك اعتدل سليمان بيك في جلسته وقال بصوت مسموع :

ـ لا . . ؟ هكذا إذاً !

انتصب الموظف وأخذ ينظر إلي شزراً ، أما البواب فقد لكزني مشيراً بيده كي أخرج . .

انتفضت فجأة كالدجاج المذبوح وقلت للمدير :

ـ إنني أبحث عن حقي ياسيدي ، وماقاله عني هذا الموظف ليس صحيحاً . .

قال لي : ـ أفهمك تماماً . .

بعدها توجه إلى الموظف قائلاً :

ـ أشكرك . . يمكنك الانصراف . .

ثم سألني :

ـ حقيبتك ، كانت قديمة ؟

ـ نعم ، قديمة . .

ـ وماذا كان فيها ؟

ـ وثائق معاملة الإرث . .

سألني عن طبيعة عملي وهو ينقر بأصابعه على الطاولة . . أجبته إنني لاأعمل أي شيء سوى الركض خلف المعاملة . . كان يصدر بأصابع يده اليمنى أصواتاً سريعة متواترة . . وعندما كلّت أخذ يضمها في راحة يده ضاغطاً عليها ، مصدراً صوت طقطقة

خاصة . . أخذت أعصابي تتوتر من هذه الحركات الرتيبة المملة المتتالية قلت : ـ ياسيدي ، إن فقدي لحقيبتي يعني أنني فقدت كل شي ، أي أنني انتهيت ، سأقتل نفسي . .

ـ لاتهتم ، من المؤكد أن أحد العاملين هو الذي أخذها ، سنجدها حتماً ، قلت لي إن وثائق معاملة حصر الإرث كانت فيها ؟

ـ نعم ياسليمان بيك . . ميراث . .

ـ أي ميراث ؟ . .

ـ إن جميع العاملين هنا يعرفون قصة معاملة الميراث ، إذ أنني كنت قد شرحت لهم قصة هذه المعاملة ، عدا سليمان بيك ذاك الذي أخذ حقيبتي ، وسيادتكم أيضاً ، لأنني ألتقي بكم للمرة الأولى . . .

ـ عُينت حديثاً هنا . .

ـ وهل يمكنني شرح ذلك ؟

كان يطقطق أصابعه في راحة يده عندما قال :

ـ أكون ممتناً لك إذا قمت بذلك . .

سررت كثيراً فهذه المرة الأولى التي يرجوني فيها أحدهم كي أشرح له قصة معاملة الإرث . .

بدأت حديثي بـ «أيام الملك» إلا أنه قاطعني قائلاً :

ـ أي ملك ؟

ـ الملك الذي شن الحرب على إيران . .

ـ فهمت . . إذاً ذاك الملك . .

ـ نعم ذاك الملك . .

قلت ذلك وعيناي مصوبتان إلى أصابعه التي كانت تنقر على الطاولة مما يتسبب في تشتيت أفكاري . .

ـ تابعوا . . تابعوا الحديث . .

ـ عندما شن الملك حربه على إيران ـ كانت المراسلة تتم بوساطة الحمام الزاجل ، أما جدي فقد كان هاوياً لتربية الحمام «حمامجي» وكان يمتلك أنواعاً شتى من الحمام ـ لذلك استدعاه الملك وكلفه برعاية الحمام ، ولقاء ذلك وهبه جميع زرق الحمام في المدينة . . وعند عودة الجيش بعد انتهاء الحرب ، توفي جدي في الطريق . ومن الطبيعي أن تتحول ثروته إلى أولاده . . وبسبب طول معاملة الإرث فإنهم لم يستطيعوا الحصول عليها . . وكما تعلم ياسيدي أن زرق الحمام مرتفع الثمن لأنه يستخدم سماداً للزهور . . ولكن عندما صرخت بأعلى صوتي «كفاك ياسيدي !» . . قال :

ـ وماذا حصل ؟

ـ وماذا سيحصل أكثر من ذلك ؟ أنا أشرح قصة معاملة الإرث وسيادتكم تطقطقون بأصابعكم على الطاولة . . وبذلك تتشتت أفكاري . . لاأستطع الاستمرار . .

ـ ولكن هل تستطيع إصدار صوت الترومبيت بوساطة أصابعك ؟ .

ـ لم لاأستطيع القيام بذلك ؟ أهي صعبة إلى هذه الدرجة ؟ !

أخذت أنقر بأصابع يدي على الطاولة ، إلا أنه قال :

ـ لا ، ليس هكذا ، انظر كيف يجب أن تنقر . .

جلست إلى حافة الطاولة الكبيرة وهو إلى الحافة المقابلة ،

وأخذ بالنقر «دم ، دم تاك ، دم تاك» .

في تلك اللحظة طرق الباب . . قال سليمان بيك وهو مستمر بالنقر : ادخل . . فدخل رجل سمين يحمل بيده مجموعة من الأوراق وقال للسيد المدير :

ـ سليمان بيك . . أتيت لك بالبريد لتوقعه ، هل ستفعل ذلك ؟

عندها فقط توقف سليمان بيك عن النقر . كي يوقع البريد ، ولكي لاأفسد الطابع الرسمي الذي تتسم به الدوائر الرسمية ، توقفت عن النقر إلا أنه طلب مني الاستمرار بذلك .

وبعد أن وقع الأوراق جميعها . . قال للرجل السمين :

ـ احكم بيننا . . من ينقر على الطاولة بشكل أفضل . .

بدأنا النقر معاً ، احتار الرجل السمين ، ونظر إليّ ، ثم إلى سليمان وخرج من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة . . فكرت بيني وبين نفسي ، ولكي يساعدني في إنهاء معاملة الميراث قلت له :

ـ عزفك أفضل ياسليمان بيك . .

أجابني : ـ من الطبيعي أن يكون أفضل ، فأنا أتدرب منذ اثنين وأربعين عاماً . .

ـ حسناً إذاً . . على مايبدو لكم فترة طويلة تعملون هنا . .

ـ نعم . . منذ صباح اليوم . .

ـ ومن أين أتيتم ؟

ـ من البيت . .

ـ ألست المدير . ؟

ـ لا ! . . وبدأ بالنقر ثانية . .

ـ ألست موظفاً ؟

لا ، إنه ليس موظفاً ، بل هو يكره العمل في دوائر الدولة ، وعندما سألته ماذا يفعل هنا إذاً ، أجابني إنه قد خرج صباحاً من البيت بعدما ملّ الجلوس فيه . . ولكي يبدد ملله . سار عبر الشوارع ، وعندما وصل إلى مدخل هذه الدائرة . رغب في أن يعرف ماذا يفعلون فيها ، فدخل ، وأخذ يجوب في جنباتها ، وعند مروره في هذا الطابق . فتح البواب الباب ، وانحنى له باحترام وقال : «تفضلوا ياسيدي» ! فكر كثيراً ولكنه توصل إلى نتيجة مفادها عدم الدخول يعني فظاظة» . . كان يتحدث وهو ينقر بأصابعه على الطاولة . وعندما سألته عن الأوراق التي وقعها قال :

ـ أنا لم أطلب ذلك من أحد . ولست راغباً في بذلك ، على كل ، سيعيدونها لعدم صحتها . .

قلت له :

ـ وبما أنك لست مديراً ، إذاً ، لم أشرح لك قصة معاملتي ؟

ـ لا ، ليس كذلك ، كل ماهنالك أننا أمضينا وقتاً مسلياً . .

غضبت كثيراً من هذا الموقف حتى كاد الدم يَفْجر من صدغي . وقبل أن ينبس ببنت شفة ، خرجت مغلقاً الباب ورائي . وفيما بعد سألت البواب : . ومن يكون هذا الرجل ؟

ـ قد يكون المدير الجديد الذي أتى بدلاً من السابق . . ولو لم يكن مديراً لما تجرأ ودخل الغرفة وجلس خلف الطاولة . حتى إنه قال إن اسمه سليمان . . وبماأن القضية لاتهمني . فقد صمتت . .

المهم بالنسبة لي ، أن البواب لم يطردني ، وأظن أنه علم أن

لسليمان بيك المدير علاقة معي . . وعندما أخذت بالنزول على الدرج أخذ موظفو الدائرة يسخرون مني كالمعتاد ، وكان بين أولئك الموظفين موظف شاب وامرأتان بمئزرين أسودين . . كانوا يضحكون . . ويتهامسون «حمامجي» «زرق الحمام» «مجنون» . لكني لم أهتم بهم لاعتيادي على هذه السخريات ، وماكنت أخشاه هو أن يدفعني أحد الأذنة خارج الدائرة . .

نظرت خلفي بعدما نزلت درجات ثلاث وبدأت الرابعة ، فوجدت بواب السيد المدير يقف وسط الموظفين المتحلقين حوله ، ويهمس بصوت منخفض ، أظن أنه يبين لهم علاقتي بسليمان بيك . . ونتيجة لذلك . . فقد خفت حدة الاستهزاء والاستخفاف لذا فقد نزلت إلى الطابق الأول بكل ارتياح ولكن رغبتي بالنزول إلى القبو للبحث عن سليمان بيك آخذ حقيبتي قد تبددت لأني لم أجد السلم المؤدي إلى هناك . . جبت الفسحة الرخامية الكبيرة عدة مرات حتى أني فقدت السلم المؤدي إلى الطوابق العليا الذي نزلت عبره قبل قليل . . وكان الموظفون منشغلين بالإعداد لطعام الغداء ، لاقتراب الفترة المخصصة له . . البعض كان يعد الطعام في الداخل . . والبعض يذهب لاأعرف إلى أين . .والبعض عائد . . فسألت أحدهم عن كيفية النزول إلى الطابق السفلي ، فأجابني بعدم الامكانية . . سألته وهل النزول إلى أسفل ممنوع . أجاب بأنه لايوجد هناك طابق سفلي . . وعندما أخبرته عما حصل لي . . أجابني بأنه يعمل هنا منذ ثلاث عشرة سنة وأن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن وجود طابق سفلي . .

سألني : ـ أنت تعمل في هذه الدائرة ، أليس كذلك ؟

وقبل أن أجيب تابع قائلاً : إنني أراك يومياً ، أنت شديد

الانتباه ، ولعلك من خيرة الموظفين ، لعلك تأتي قبل الجميع وتذهب بعدهم ، لكن ، في أي قسم تعمل ؟

وقبل أن أتفوه خرج أحدهم من تحت الدرج وأخذ يصرح بي : هيا . . اخرج من هنا . . أليس لدينا عمل آخر سوى التحدث مع المجانين ؟ أما أنا فأخذت أصرخ بأعلى صوتي :

ـ لن أخرج من هنا . . قبل أن آخذ حقيبتي . . .

تحلقت مجموعة حولي . . وأخذوا يدفعونني لإخراجي من الدائرة ، وبين هذا الحشد أخذ البعض يناصرني ، أما من عرفني سابقاً فقد أخذ يدفعني خارجاً . . وفي تلك الأثناء اقترب أحدهم صائحاً : «ليس من حقكم التصرف هكذا مع المواطن» . . انقلبت الهجمة على ذاك الرجل . . ونشب عراك شديد ، لذا فقد أخذت أفصل بين المتعاركين . . وبين حيص وبيص المعركة جذبني أحدهم بيدي ، فإذا به الموظف الذي سألته عن إمكانية النزول ، أدخلني غرفة الانتظار ، فشكرته على فعلته وقلت :

ـ لن أنسى فضلك ماحييت ، وسأساعدك عندما أنهي معاملة الميراث . .

سأل : ـ أي ميراث ؟

قلت : ـ إن قرار الملك حول حقنا في ملكية زرق جميع طيور الحمام في المدينة هو بحوزتي . . وكما تعلمون فإن حكومتنا لاتنهي معاملات كهذه بسهولة . . ولكن . . أرجوك لاتنزعج من حديثي ـ لاجدي ولا والدي استطاعا إنهاء هذه المعاملة ـ لذا فقد ماتا من شدة العوز والفاقة . .

كان هذا الموظف منهمكاً في تناول طعامه من «السفرطاس» وقد دعاني إلى مشاركته مع أنه لاتوجد سوى شوكة واحدة . .

اعتذرت منه قائلاً بأنني أكلت منذ قليل . . سألني :

ـ وهل ميراثكم يشكل ثروة كبيرة ؟ ! . .

ـ نعم ! . . ولكن كل من يفهم مثلكم لايستطيع مساعدتي . .

لقد كان هذا الموظف على دراية بأمر معاملتي . .ولكني عندما شرحت له ، تيقن من وضعي أكثر ، لذلك استغرب كثيراً عندما أعلمته أني طرقت كل أبواب الدوائر الرسمية منذ زمن طويل . . تصور أنني تقدمت بطلب إجراء معاملة الميراث منذ ثلاثة وأربعين عاماً . .

سألني : ـ وكم عمرك ؟

قلت : ـ لاتندهش ، فقد تقدمت والدتي بالطلب المبدئي للميراث عندما كانت حاملاً بي قبل ثلاثة وأربعين عاماً .

وهكذا أستطيع القول أني بدأت رحلة البحث عن الميراث منذ ثلاثة وأربعين عاماً من خلال يد أمي . . أليس كذلك ؟ قال : بالطبع . . .

تمنيت لو كان جميع الموظفين مثله . . لأنهم لو كانوا كذلك لانتهت معاملتي منذ سنوات طويلة . . . سابقاً كانوا يحتجون بأن عائلتنا كبيرة . . وعلاقاتنا معقدة ، أما الآن فقد أصبحت وحيداً ، فما حجتهم اليوم ؟ ولكن عندما تحصل على الميراث فقد يظهر بعض الأقرباء . . إنكم تعرفون أكثر مني أن أية معاملة لايمكن أن تتم في دوائر الدولة دون رشاوى وأرجو أن لاتظنوا أن كلامي موجه إليكم . . مسكينة أمي . . فبسبب هذه المعاملة وضرورة إنجازها لم تقم بأي عمل آخر . .ولم يكن بحوزتها ماتدفعه كرشوة . . فلم يكن أمامها إلا أن راحت تخدم مجاناً في بيوت الموظفين . . لقاء وعودهم بمساعدتها وإنهاء معاملتها ، وكانت

المسكينة تجيد كافة أنواع العمل المنزلي . . لذلك كان الموظفون على يقين بأنهم لو أنهوا هذه المعاملة فلن يجدوا مثلها ومثل هذه الخدمة المجانية . . لذلك راحوا يعقدون ويطيلون المعاملة ، تصور أنهم وضعوا برنامجاً أسبوعياً خاصاً فيما بينهم نظموا من خلاله أيام العمل . وفي بيت من . فعندما يأتي دور هذا الموظف كي تعمل أمي في بيته يتم تحويل المعاملة إليه ، وكما أخبرني جيراني فيما بعد ، فإن إحالة المعاملة أصبحت تباع وتشترى . .

اكتشفت أمي هذه الألعوبة فيما بعد . . لذلك اشتكتهم إلى رئيسهم . .

قال لها : . . آخ من المنحطين الأنذال . . ومنذ ذلك اليوم أخذت أمي تعمل في بيت الرئيس فقط . .

إن هذه المعاملة كادت أن تنتهي ، لكن ـ للأسف ـ بوفاة والدي تعقدت الأمور وبدأت أمي رحلة المعاملة ثانية ، وبذلك أخذت تعمل في بيوت الموظفين . . وعندما توفي والدي كانت أمي حاملاً بي وقد جاءتها آلام المخاض عندما كانت في إحدى الدوائر الرسمية . . وقد ولدتني في بيت أحد الموظفين ، وعيت على أمور الدنيا وأنا في دوائر الدولة إذ أنها كانت تصطحبني معها لملاحقة المعاملة ، لأنها لاتستطيع تركي وحيداً في البيت ، كانت تنتقل من دائرة لأخرى وهي ممسكة بيدي ، ويوم وفاتها كنت في الثالثة من العمر ، لذلك أخذت عمتي مهمة معاملة الميراث على عاتقها . . وهذا ماأعلمتني عنه فيما بعد . . كانت «تحفضني وتقمطني» وأنا ابن الثالثة كي تُظِهر أنني رضيع في دوائر الدولة . . كانت تقوم بذلك كي يتعطفوا علي وينهوا المعاملة بسرعة . . كانت تخرج يدي من «القماط» وتضع المعروض فيها ،

كذلك علمتني أن أضعه على طاولة الموظف . .

إن إحالة معاملة الميراث إلى قيادة الأركان كانت من الأمور التي لاتصدق . . ولكن لكي يبعدنا أولئك الموظفون من وجوههم كانوا يحتجون أن ميراثنا مرتبط بمسألة الحمام الزاجل الذي استخدم في زمن الحرب مع إيران . . لذلك فإن قيادة الأركان هي المسؤولة وصاحبة القرار . . غير أن عمتي وجدت إلى هناك سبيلاً ، وفي إحدى المرات كنا في قيادة الأركان نقف أمام أحد الضباط الكبار وكنت أمسك بالمعروض بيدي الخارجة من «القماط» . . أخذني ذلك الضابط في حضنه . . وأخذت ألعب بالأوسمة المعلقة على صدره ، ورغم تنبيهات عمتي حول ضرورة صمتي في مثل هذه المواقف ، غير أن اللعب بالأوسمة أنساني تلك التوجيهات ، وأخذت بالكلام وهذا ماأوقع الضابط بالحيرة «كيف يقمطون طفلاً يتكلم ؟ !»

أعادت قيادة الأركان المعاملة ، بعدما ثبتت على حاشيتها أن معاملتنا هذه من صلاحيات وزارة الزراعة لأنها مرتبطة بقضية تربية الحمام . .وعندما بدأت أتابعها بنفسي كانت قد أحيلت إلى وزارة الأوقاف . . ولكن ! . أيعقل هذا ؟ ! . . نعم . .هذه هي الحقيقة . .

راحت عمتي ولكي تنهي المعاملة بسرعة . تعمل في بيوت الموظفين وبما أن الوريث الوحيد قاصر . . لذا . . فقد أحالوا المعاملة إلى الموظف المسؤول عن الشؤون الدينية . . أما الموظف هذا الذي كنت أشرح له ملابسات معاملتي فكان قد أنهى طعامه ، لكن النعاس الذي غالبه بعد الطعام شتت استمتاعه فأخذ بالتثاؤب ، أما عيناه فقد صغرتا ولكي يظهر اهتمامه بحديثي كان يكرر :

ـ «لاه . . . ، واه ، واه . . نعم ! . .» وفي الوقت نفسه يرافق حديثي بطقطقة لسانه على سقف حلقه . . أخذت حدقتا عينيه بالتقلص حتى أصبحتا كعيني طفل صغير . . لذلك قطعت حديثي وسألته : ـ «والآن . . كيف سأعثر على حقيبتي ؟» غير أنه كان مستسلماً لنوم عميق . . وظن أني أتابع حديثي ، لذلك أجابني . . «لاه . . ، واه . .» فصمت ، أما هو فقد أسند رأسه بكلتا يديه وأخذ بالشخير ، سألني وهو نائم : ـ وماذا حصل ؟ قلت له : ـ إنني لاأجد السلم المؤدي إلى الطابق السفلي . .

قال وهو نائم : ـ إنني أعمل هنا منذ ثلاث عشرة سنة ولم أسمع أن في دائرتنا طابقاً سفلياً ، ومع ذلك لاتقطع الأمل . . تابع البحث قد تجده» . . فشكرته كثيراً وخرجت وفي البهو التقيت بذاك الشخص الذي أخذ حقيبتي «سليمان بيك» وعندما رآني قال : ـ أين أنت ؟ مابكم ؟ الجميع يتركون حقائبهم ويذهبون ، هيامعي ، وخذ حقيبتك . . . وسار أمامي فتبعته ، أما ذلك السلم اللعين ، فقد كان أمامي ولكن . . لمَ لمْ أستطع مشاهدته ؟

صعدنا عبر درجات السلم وبعدها سرنا عبر الممر الطويل ، وكان سليمان بيك صامتاً ، وسكتُّ حتى لاأفسد عليه صمته . وبعد اجتيازنا ممراً طويلاً ملتوياً يمنة ويسرة ، دخلنا غرفة كبيرة فيها حقائب كثيرة موزعة على أكثر من نصفها . .

قال لي : ـ هيا ! خذ حقيبتك ، أين هي ؟

أخذت أبحث عنها بين كومة من الحقائب ، وتعبت كثيراً من هذا البحث ، ولكي أستعيد نشاطي ، جلست بين الحقائب ، وفي أثناء ذلك ، دخل رجل في الخمسين من العمر وتوجه إلى سليمان بيك قائلاً : ـ هل لديك حقيبة إضافية ؟ . .

ـ نعم . . ولكن ليس من حقي التصرف بها . .

ـ سألتك بقصد السؤال . . وليس لآخذها . .

بعد ذلك رآني ، فقال : ـ هل هو نائم ؟

أجاب سليمان بيك : ـ لقد تعب كثيراً ، فغفا وهو جالس . .

فتظاهرت بالنوم حتى لاأكذبهم . . قال الرجل : ـ ماأخشاه هو أن يعتاد المجيء إليك . .

ـ أتعرفه ؟

ـ نعم أعرفه ، لقد اعتاد المجيء إلى قسمنا منذ عدة سنوات ، تصور أن بعض الأصدقاء كانوا يكلفونه بتنفيذ المهمات التي هي بحاجة للعمل خارج الدائرة . . كذلك فقد عمل لدينا بصفة آذن لمدة عام . . وهو يلم بجميع الأعمال هنا . .

ـ لكن ، لماذا أبعدتموه عن العمل ؟

ـ لم نبعده ، بل هو الذي ترك العمل . .

ـ وهل أعمالكم صعبة ؟

ـ لا ، لاأعتقد ، كل ماهنالك أن المسكين كان يُضرب بشكل دائم ، خاصة من قبل المسؤولين الذين كانوا يتفششون به عندما يخرجون من منازلهم معكري المزاج بعد شجار مع الزوجات ، وكما تعلم ، لايمكن للمرء الخروج من بيته هادئ الأعصاب . . على كل ، أنا ذاهب ، إذاً لديكم حقيبة إضافية . . خرج الرجل . أما سليمان بيك فبدأ ينظف أسنانه بورقة تناولها من الطاولة وطواها عدة مرات . . تظاهرت أني استيقظت وعدت للبحث ثانية . . بعد ذلك سألني : ـ ومن الذي أحال معاملتك إلينا ؟

ـ وزارة الخارجية . .

- وماعلاقتها بذلك ؟ . وأردف : هل هناك رابط بين وزارة الخارجية وزرق الحمام ؟

- لا . . منذ حرب إيران . .

احترت كثيراً ، من أين عرف سليمان بيك بقصة معاملتي . . لذلك سألته :

- لكن . . كيف عرفت مشكلتي ياسليمان بيك ؟

- الجميع هنا يعرفها ، ولاأظن أن هناك من لايعرف بها . .

- لا . . المدير لم يكن يعرف بها ، لذلك شرحت له اليوم صباحاً . .

- وهل أتى المدير ؟

شرحت لسليمان بيك كيف خرج ذاك الرجل من منزله معكر المزاج ، وكيف سار في الشوارع ليبدد كآبته ، وكيف دخل إلى الدائرة ، وبعد ذلك إلى ذاك الطابق ، وانحنى له البواب وأدخله إلى غرفة المدير . . لم يستغرب سليمان بيك من حديثي إطلاقاً ، بل قال : طالما أنه دخل غرفة المدير ، فقد أصبح مديراً فالفرق بين المدير وغير المدير ، هو كالفرق بين المواطنين ، فلو دخل الغرفة مجموعة أشخاص لاختلف الأمر ، لأننا سنحصل على مدير عام ووزراء ، لذلك ، لتسلم مناصب عالية ، يجب دخول غرف كهذه ، ولاتحتاج إلى علاقات مباشرة مع المواطنين . .

- ولكن . . لماذا لايدخل إلى مثل هذه الأماكن البواب ، أو الآذن ، أو موظف صغير ، مدير الذاتية مثلاً ؟

- لأن ذوي المناصب العالية إذا لم يدخلوا هذه الأماكن لما نظر إليهم المواطنون نظرة احترام وإجلال . . وجميعنا هنا في

هذه الدائرة بحاجة إلى الشعور بالمكانة والاحترام . ولذلك فإن «العجقة» هنا ليست بسبب نظرة الاستخفاف بالمواطنين ، بل ، من أجل تحقيق ذلك الشعور ، ولذلك فإن المواطنين يدفعون الهبات بلا حساب . . وفجأة . . قلت لسليمان بيك «العوض بسلامتك» وأخذت أهذي وأرفس بقدمي ، إلا أنه لم يستغرب إطلاقاً تصرفاتي المعتوهة . . أثناء ذلك طرق الباب وسمح سليمان بك للطارق بالدخول ، فدخلت المرأة التي سألتُها عن سليمان بيك في الممر ، وقالت : ـ لقد طلبني السيد المدير ، لذلك يجب أن أتهيأ له . . ذهبت إلى كومة الحقائب وأخرجت من إحداها عدة التزيين «زوج من الأثداء الصناعية» ومرآة ومشط وكذلك أحمر الشفاه وماإلى ذلك ـ بعدها أخذت تبحث عن مكان تسند إليه المرآة . . وعندما لم تجد ضالتها . . طلبت مني أن أسند لها المرآة بعد أن ركبت الثديين الصناعيين وسألت سليمان بيك : ـ جميلة جداً . . ولكن لم لا تركيبها في كل الأوقات ؟

قالت : ـ عندما أضعها بشكل دائم ، يغار السيد المدير ويطلب أن يكون ذلك له وحده . .

سألها سليمان بك : ـ وكيف المدير الجديد ؟

ـ المدير الجديد ؟ لم ألاحظ ذلك ، لأنني لم أنظر إلى وجهه ، على كل جميعهم متشابهون . .

وبعد خروجها ، قال سليمان بيك : ـ هذه المرأة هي سكرتيرة المدير ، شريفة جداً ، وتصور أنها تضع الثدي الصناعي عند دخولها غرفة المدير فقط . .

قلت له : ـ إن المدير الجديد اسمه سليمان .

قال : ـ كما سمعت ، جميعهم متشابهون . . فالمدير السابق

كان اسمه سليمان أيضاً . .

ـ وأنت أيضاً اسمك سليمان ، إلا أنك لست مديراً . .

ـ إن جميع المدراء أسماؤهم سليمان ، ولكن ليس كل سليمان مديراً . . وأردف قائلاً بعد لحظات شرود ، إن بيني وبين المواطنين عدة حواجز ، وبعد عمر طويل ، فإنه حتى هذه السكرتيرة ستطرق الباب عندما تود الدخول ، فهذه الحد من البعد ، والحواجز لايكفي لذلك لابد من وجود عدد من البوابين والأذنة ، ولكي أحصل على احترام أكثر من المواطنين لابد من توجيهات مشددة للسكرتيرة بعدم إدخال أحد . .

أثناء انشغالنا بهذا الحديث دخلت السكرتيرة دون استئذان قائلة : ـ سليمان بيك ، هل تعلم أن هذا المدير الجديد رجل محتال كبير ؟ إذ أنه وجد تصريفاً لذاك المجنون الذي تسلط على دائرتنا ! . .

حاول سليمان بيك جاهداً أن يلفت انتباهها بإشارات عينيه وحاجبيه ، غير أنها تابعت : ـ ومن هو هذا الرجل وأين هو ؟ له معاملة ميراث والمدير يريد مقابلته . . اقترب سليمان مني ، حيث كومة الحقائب ، ووضع إحدى يديه على كتفي وأخذ يهمس في أذني : ـ لاتهتم ، لن يمسوك بسوء ، ـ أنا سأذهب معك ، وإذا حاول أحد ما ، سأدافع عنك . .

ـ أشكرك ياسليمان بيك ، غداً ، عندما تنتهي معاملة الميراث سأقدم لك مايجب ، عرفاناً بجميلك هذا . .التفت سليمان بيك نحو المرأة قائلاً : ـ هذا هو صاحب معاملة الميراث . .

خرجنا جميعاً من الغرفة ، وصعدنا إلى الطابق العلوي ، وهناك دخلنا المصعد ، ضغطت المرأة على الزر السادس .

قلت : ـ لكن غرفة المدير في الطابق الثاني . .

أجابني سليمان بيك : ـ سنصعد إلى الطابق السادس ومن ثم ننزل إلى الثاني . .

ـ ولكن لماذا ؟ . .

ـ ألم أشرح لك ؟

بقدر ماتكون إمكانية الدخول صعبة أكثر ، بقدر ماتحترم أكثر . .

تجهمت المرأة وهمست له : ـ ولماذا تكشف أسرار الدولة أمام الغرباء ؟

ـ إنه ليس غريباً . . بل واحد منا . . وأردف قائلاً . . انظري كم يشبهنا فهو مجنون مثلنا . .

دخلنا غرفة السيد المدير ، لكنه لم يكن الشخص نفسه الذي تحدثت معه هذا الصباح . . مدَّ السيد المدير يده مصافحاً بشدة ومعرفاً بنفسه «أنا سليمان» قلت : ـ ولكن كان شخص آخر هنا صباحاً . .

قال : ـ لقد ذهب ذاك المدير ، وأتيت عوضاً عنه . . . طلب منا الجلوس . . وتابع : ـ لقد أتيت لإجراء بعض الإصلاحات .

سألته : ـ ومن أين أتيت ؟

ـ من الفندق ؟

ـ ولكن المدير السابق أتى من البيت . .

ـ سأبقى في الفندق حتى أجد بيتاً للإيجار . .

سألته : ـ وماهي الإصلاحات التي ستقوم بها ؟

ـ سأقوم ببعض إحصاءات هامة وإذا لم أقم بذلك لن أعرف الإمكانات المتوفرة في وطننا ، لذلك ، قبل كل شيء ، سأقوم بمعرفة عدد الموظفين الضروريين بشكل فعلي ، وحصلنا في هذا المضمار على نتائج مدهشة فعلى سبيل المثال ، تبين لي أن بين كل ثلاثمائة موظف ، هناك موظف زائد ، لكن الأهم من ذلك أننا وجدنا أن بين كل اثنين زائدين ، يوجد واحد والثاني وهمي ، أليست هذه المسألة مدهشة ؟

قلت له : ـ وماذا فعلتم بهذا الموظف ؟ ! . .

ـ من الطبيعي أن نقدم له مكافأة . .

كان السيد المدير يتحدث وهو يطقطق بأصابعه على الطاولة وبعد ذلك وعندما تعب ، وضع أصابعه في راحة كفه وأخذ يصدر صوتاً غريباً بالضغط عليهم . .بينت للسيد المدير أن المدير السابق أيضاً كان يطقطق هكذا بأصابعه . . أجابني : ـ هذا طبيعي جداً ، ولكي لاتتبدل المبادئ الرئيسية في أجهزة الدولة ، فإنني سأجري إصلاحات ولكن دون المساس بالمبادئ الأساسية ، وعلى سبيل المثال : ستقوم سكرتيرتي عندما تدخل مكتبي بإجراء بعض الإضافات الطبيعية على نهديها . . وبهذا لن تتأثر المبادئ الأساسية . .

أخذ ينقر بأصابعه على الطاولة بهيجان أكثر عندما أردف قائلاً : ـ كذلك سأقوم بإنهاء الأعمال المتوقفة وهذا هو السبب الذي دعاني لطلبك ، أهنئك لقد استلمنا الإجابة النهائية لمعاملتك ، وبذلك يمكنك اعتبارها منتهية بعد أن استمرت مدة أربعة أجيال من عائلتك . . وهكذا يعتبر زرق الحمام في هذه المدينة طيلة الفترة ملكاً لكم ، واستناداً لحسابات أخصائي وزارة الزراعة فإن

الحمامة الواحدة تغوط تسعة وأربعين غراماً وفي مدينتنا يوجد حوالي عشرين ألف حمامة ، وإذا قمنا بتقسيم هذه الفترة إلى ثلاث مراحل ، وكل مرحلة ثلاث وثلاثين سنة فإنك تحصل على ستة وثلاثين ألف طن من زرق الحمام . ، . هذا حجم ميراثكم وحسب الأسعار الجارية فإن سعر الكيلوغرام الواحد عشر ليرات يعني قيمة الميراث يصبح ثلاثة ملايين ونصف المليون ليرة . وزارة المالية تستحق ضريبة تركات بنسبة ثمانية عشرة بالمائة وكما تعلم . . يجب تسديد الذمة قبل كل شيء . ولن يتم تسليم الميراث قبل دفعها . .

قلت متسائلاً : ـ ألا تستطيع وزارة المالية أن تحسم ماتستحقها وتعطيني الباقي ؟

ـ لا . . . إن وزارة المالية تجبي ضرائبها بشكل نقدي . .

ـ حسناً إذاً . . سأتنازل عن حقي بالميراث . .

ـ لايجوز التنازل بعد صدور القرار . . لأن الضرائب تعتبر ديناً عليكم . .

وقفت وتشكرت السيد المدير كثيراً وعندما هممت بالخروج من مكتبه كان ينقر بأصابعه على زجاج الطاولة . . لذلك عدت وقلت له : ـ ماذا ، وأنا أيضاً أستطيع القيام بذلك ، وأصدر صوت الترومبيت ، حتى أننا أجرينا مسابقة بيني وبين المدير السابق . .

استشاط غضباً واعتبر ذلك إهانة له ، وحاول أن يكتب محضراً بذلك . أما سليمان بيك الآخر فقد حاول أن يخرجني من الغرفة . . قلت : ـ حسناً . . وماذا بخصوص حقيبتي ؟ ففيها كل الوثائق التي جمعتها خلال سنوات طويلة ، جمعتها من بعض المقالات المنشورة في الصحف ، أو من كتب التاريخ ، وهل أستطيع

القيام بذلك ثانية بعد أن كبرت في العمر ؟

نزلت عبر السلم ، وفي الطابق الأرضي اجتمع جميع الموظفين والخدم والحشم وأخذوا ينظرون إلي دون أن ينبسوا ببنت شفة ، ترى الحزن قد خيم عليهم ، وكأنهم ليسوا أولئك الساخرين مني .

من بين الحشد ، خرج ذاك الموظف الذي دافع عني وأدخلني غرفته عندما كانوا يسخرون مني . . وعيناه مغرورقتان بالدموع . . وأخذ يهمس في أذني لقد وعدتني عندما تحصل على حقك بالميراث ، أشكرك لقد حصلت على حصتي إلا أنه لم يستطع الاستمرار بالحديث لأنه غصّ وغاب الكلام في حلقه . . أما عند الباب الرئيسي فقد وقف البواب الأعرج ، الذي طردني أكثر من مرة ، ناظراً إلي . . تابعت سيري والصمت المطبق يصفع وجهي . . إنني أتألم كثيراً لأني في السابق ، ومع أني لم أحصل على حقي بالميراث ، فإني كنت أتسلح بالأمل كنت أتواجد في تلك المؤسسة قبل جميع الموظفين ، يدفعني الأمل إلى ذلك ، الأمل الذي جعلني أثق تماماً بأنني سأحصل على حقي . .أما الآن فقد فقدت كل شيء ، فقدت الأمل . . نعم . . الأمل . . ولن أستطيع البدء مجدداً لأني فقدت كل الوثائق . .

رغبت في الهروب من ذاتي ، لذلك اتجهت نحو البحر . . وهناك شاهدت حشداً من الناس . . حاولت أو بالأحرى رغبت في التسلل إليهم . . لأذوب بينهم . . . كان المطر ينهمر مدراراً والهواء البارد يلسع الوجوه آه من ذلك المدير ، لقد استطاع أن يتخلص مني . .هكذا . .نعم . . سأتسلل داخل هذا الحشد ، واختنق داخله . .

وقف أحدهم أمامي وألقى التحية ، لم أعرفه في البداية ، ولكن

من طريقة حديثه الاستعراضية ، عرفت أنه موظف في إحدى دوائر الدولة . . جميع الموظفين يستخدمون أسلوب اتهام البريء . . أو الطرد والسخرية ، كما فعلوا معي ولكن عندما تكون جيوبهم مملوءة ، فهم لايغضبون كثيراً . .

ـ منذ فترة طويلة لم تأت إلى دائرتنا . .

ـ وفي أية دائرة تعمل ؟

ـ لقد استلمنا الرد من الوزارة ، وهي تطلب الوثائق . . ونحن نبحث عنك لإعلامك . .

. . الحقير ! . . كان يسخر مني ، والآن وبعد أن أصبحت غنياً . .سأريه . . لذلك يجب البدء بجمع الوثائق مرة ثانية . . لكن . . كم من السنوات سأمضيها لأجل ذلك ؟ . .

يجب البحث لدى بائعي الصحف القديمة ، أو في الروايات التاريخية . . وماذا سيحصل . .المهم أن الحياة حلوة هيا إذاً . . لأبحث عن الوثائق طالما أن رد الوزارة قد أتى . .

نشرت هذه القصة عام ١٩٤٦ في صحيفة «ماركو باشا» وفيما بعد في مجموعة «يبي تاش» وبعد ذلك في مجموعة «فيل حمدي» تحت عنوان «زرق الحمام» وبعد إعادة صياغتها بعنوان «المتسلط» . .

طبيب الأعصاب

سلك الطبيب الشاب المختص بالأمراض العصبية كل السبل حتى استطاع أن يفتتح عيادة خاصة له وسط المدينة . ولكن الزبائن «عفواً» المرضى لم يعتادوا على عيادته بعد ، لم يساعده على جذبهم اختصاصه في أوروبا ولاخبرته ولاحتى نباهته .

لقد ألقت صعوبة الحياة المعيشية بكل ثقلها على كاهله ، لذلك لم يجد سوى وسيلة واحدة فقط قام بتنفيذها مباشرة ، علق يافطة على باب عيادته كتب عليها «نستقبل المرضى أيام العطل الأسبوعية والأعياد» كذلك نشر بعض الإعلانات في الصحف .

معروف أن الجميع موجودون في منازلهم أيام العطل الأسبوعية والأعياد وقد تتوتر أعصابهم أكثر من أي يوم آخر ومعظم الأطباء لايعملون في هذه الأيام . وحدث ماتوقعه الطبيب تماماً ، ففي أول عطلة أسبوعية تلت نشر الإعلانات في الصحف ، قرع الجرس ودخل رجل إلى غرفة الكشف يصرخ بأعلى صوته ويداه وقدماه ترتجف .

دكتور ، أعصابي منهارة ، أرجوك ـ ساعدني وأعطني إبرة مهدئة للأعصاب أو أي دواء آخر .

سأله الطبيب :

مما تشكو وماذا حصل ؟ قل لي رجاءً .

راح المريض يصف للطبيب ماجرى له قائلاً : كفى ، لقد وصلت الأمور إلى أرنبة أنفي ، ألا يستطيع المرء أن يأخذ قسطاً من الراحة في مثل هذا اليوم .

ـ ممن تشكو ؟

ـ ممن سيكون هاه ؟ بالتأكيد من زوجتي ، تصور تقول إنها لاتستطيع التحمل أكثر من ذلك وأن حياتها صعبة وبيتنا رطب وأطرافها تؤلمها من قلة الحركة وهي إنسانة ومن حقها أن تقوم بالزيارات ، وللإنسان يومان في هذه الحياة وتريد مني أنا الكهل أن أتأبط ذراعها ونذهب إلى السينما أو المسرح .

أرجوك يادكتور كيف لي أن أصطحب أم الأولاد وكيف سأرضيهم ؟ هل آخذها مع فصيل من الأولاد وأضع قبعة هذا على رأس ذاك . كن مكاني فماذا تفعل ؟ ألا تنزعج وتتوتر أعصابك هاه ؟

فجأة خر المسكين على الأرض منتفضاً كنابض خرج من مكانه .

أما الطبيب فقد أخذ يرتجف إذ تذكر المشاجرة التي جرت قبل قليل مع زوجته فهي تماماً مثل زوجة المريض لأنها تطلب باستمرار التنزه في الهواء الطلق .

دخل عيادة الطبيب مريض آخر وهو يصرخ بأعلى صوته :

ساعدني دكتور يداي وقدماي ترتجف وترتعش . أرجوك ساعدني أعطني ماتشاء . . آااخ سأفقد وعيي أعطني ماتشاء . . آااخ سأفقد وعيي إننا لم ننج من هم الأجار وأصحاب المنازل ، تصور لقد قرع الجرس صباح اليوم وإذ بصاحب البيت يطلب الأجرة ويقول إنها قليلة وينعتنا بعدم الإنصاف وقلة الضمير وأننا نأكل حق غيرنا ومن شدة صراخه واهانته كرامتنا أتيت إليك يادكتور .

قال له الطبيب : اجلس الآن كي أكتب لك وصفة الدواء .

تحدث الطبيب إلا أنه كان شارداً لقد تذكر مشكلته مع صاحب المنزل الذي طالب بزيادة الأجرة وإلا فسيرفع دعوى في المحكمة . ولذلك أخذت يد الطبيب ترتجف وترتعش وبعد كتابة الوصفة دخل مريض آخر وهو يبكي بصوت عال ويقول : انتهيت ، لقد انتهيت . .لاأستطيع العيش بعد ذلك .

سأله الطبيب :

ـ ومما تشكو ؟

ـ يوه ه ه ه ـ اجابة المريض ـ لقد وصلت السكين إلى رقبتي وبعد الآن فليحصل مايحصل . ولكن أرجوك أعطني ابرة يادكتور فإن قلبي يرتجف آخ من هؤلاء السائقين .

تذكر الطبيب مشكلته التي جرت البارحة ليلاً مع سائق السيارة . وكيف راحا يتصايحان ولو لم يأخذ حبتي مهدئ للأعصاب في البيت لما استطاع أن ينام ، إذ أنه كان يتصور طوال الوقت السائق أمامه ويتخيل ما كان سيحصل لو ضُرِب أو صُفِع على وجهه .

وبعد ذاك المريض دخلت امرأة متوسطة العمر غرفة الكشف

وسرعان مافقدت وعيها ، ولم تتمكن من استعادتها وعيها إلا بجهد جهيد وبعد ذلك أخذت بالبكاء وقالت :

ـ ماأصعب حياتي .

وحسب شرح المريضة تبين أن ابنها عاق ويرفض مساعدتها .

ـ يداي وقدماي لاأشعر بها يادكتور .

أعطى الدكتور تلك المرأة إبرة مهدئة إلا أنه تذكر أخاه العاق العاطل عن العمل رغم قوة بنيته وطوله الفارع «لاشغلة ولاعملة» ويمد يده ويطلب النقود من أخيه باستمرار والأنكى من كل هذا وذاك أنه يريد أن يصبح فناناً .

سقطت الابرة التي كانت بيده وتحطمت عندما تخيل وجهه .

راح المرضى يتجمهرون في غرفة الانتظار البعض يبكي والآخر يضرب بجسمه الجدار .

دخل مريض شاب إلى غرفة الكشف وقال للطبيب :

ـ زوجتي يادكتور . . زوجتي ، وأخيراً شعرت بالأفعى .

زوجته ؟ ! ! خطف لون وجه الطبيب وتغيرت سحنته كيف لا . . ـ دنيا وأحوالها ـ قد يظن أنها معجبة بي . ؟ . كم من الحوادث حصلت على هذا الغرار .

مريض آخر كان يتحدث ويصف وضعه بصعوبة بالغة ، مسكين سيحجزون على أشيائه يوم غد .

انتصب شعر رأس الطبيب وأصبح مثل شوك القنفذ من هول ماسمع لأن الأعراض التي بدت عليهم قد تظهر عليه أيضاً .

ـ تصور يادكتور ـ قال له المريض ـ رجال الشرطة ومنفذو

الإجراءات والغرباء سيدخلون بيتي ، حتى غرفة نومي و . . أشيائي .

يجدر الذكر هنا أن الطبيب استدان مبلغاً من المال حتى استطاع افتتاح عيادته وأن الدائنين راحوا يطالبون باسترداد أموالهم . أما هو فلا يستطيع سداد فوائد المبلغ فكيف الحال مع المبلغ .

ـ مما تشكون ؟

ـ أليس واضحاً مما نشكو ؟ انظر جيداً يادكتور ، ماقيمة الإنسان بلا شاي أو قهوة ، وحتى مسامير الحذوات مفقودة . تصور يادكتور مسامير الحذوات مفقودة ! ! ! . .تصور يادكتور مسامير الحذوات مفقودة ! ! ! . . تصور يادكتور أرجوك تصور ماحال البلد بلا مسامير وماذا سيحصل يادكتور بلا مسامير ، حتماً ستسوء حالتنا أليس كذلك ؟ نرجوكم آمنوا لنا المسامير .

وفجأة أغمض الطبيب عينيه وتغيرت سحنته وارتجفت شفتاه وراح يشد شعر رأسه ويقول مسامير . .مسامير . . نريد المسامير النظيفة والمتينة ، وفروا لنا المسامير . وخرج إلى الشوارع وهو يصرخ :

ـ مسامير الحذوات . . مسامير . .مسامير .

العرض الأخير

نوري : شاب في الثلاثينات من العمر ، ماهر في عمله ، ذو مؤهلات لاتعد ولاتحصى ، وعلى الرغم من كل ذلك فهو لم يستطع جمع ثروة حتى لو كانت صغيرة . لذلك توصل إلى نتيجة مفادها أن قطار العمر يجري لذا لابد من إيجاد مصدر رزق ثابت وهذا ماكان ، باع بيته الموروث عن أبيه واستأجر مخزناً فخماً في منطقة راقية ودفع فروغاً عالياً ، وبعد ذلك استقدم شتى أنواع الموبيليا وصنع بعضها الآخر ، ولكي يكتسب الزبائن قام بتخفيض أسعارها .

تجمع المارة ، مستطلعين ، خلف زجاج المخزن ، حتى شعر نوري نفسه وكأنه سمكة في حوض ماء ، لذا ، لم يجد سبيلاً إلا تغيير مكان مكتبه والانتقال إلى آخر المخزن هرباً من نظرات المارة ومع مرور الأيام ، ازداد تجمع المارة أمام واجهة المخزن دون أن يدخل أحدهم إليه ، علق نوري يافطة كتب عليها ، «نبحث عن أجير» كي يساعده داخل المحل وخارجه وهكذا توافد الصبية إلى المخزن لدرجة أنه وقف حائراً أمام كثرة عددهم .

ماذا تعمل ، وماذا بوسعك القيام به ؟
ونظراً لحاجتهم للعمل كان جوابهم موحداً .
- أقوم بما توكله إليّ .

صباح ذات يوم دخل المخزن طفل مجعد الشعر قذر ، ذو عينين سوداوين ، أسمر الوجه ، نحيف وطويل ، كل شيء فيه مضحك أسنانه تبدو ناصعة البياض ، لالنظافتها ، بل لوجهه الكالح . أصابع قدميه ظهرت من حذائه البلاستيكي . تقدم من نوري مستفسراً دون أي ارتباك أو خجل :

- سمعت أنك تبحث عن أجير :

طريقة كلامه ولهجته وحتى شكله تدل على أنه غجري :

- نعم ، نحن بحاجة لخدمات أجير .
- إذاً دعني أعمل لديك .
- وماذا بوسعك القيام به .

لم تكن إجابته كإجابته سابقيه ، بل

- لاشيء ،
- لاتتقن أي شيء ؟

لا ، لاأتقن ، لكن ، أستطيع التعلم بسهولة فيما لو ساعدتني

- ماسمك ؟
- سلو
- كم عمرك ؟

ستة عشر عاماً .

مظهره الخارجي وحتى وجهه يدلان على أنه لم يتجاوز

العاشرة .

ـ هل تجيد القراءة والكتابة ؟ .

أطلق من بين أسنانه صفرة وهز برأسه نافياً قدرته على القراءة والكتابة .

ـ هيا اذهب إلى المطبخ هناك موقد كهربائي ، إعمل كأساً من الشاي .

ـ لاأعرف تحضير الشاي ! .

ـ إذاً هيا امسح أرض المخزن .

ـ لاأستطيع .

ـ هل تجيد مسح الغبار من على الموبيليا يومياً ؟ .

ـ لاأجيد .

هكذا كانت إجابته ، لاأعرف ، لاأستطيع ، ولعل هذه الإجابات ساهمت في تقريب هذا الطفل إلى قلب نوري .

ـ طالما أنك لاتجيد أي شيء ، لمَ أتيت إلى هنا ؟

انتفض سلو وقال :

ـ إلا أنني أستطيع القيام بأشياء يعجز عن القيام بها شخص آخر .

ـ وماذا تعرف ؟ .

ـ هل أستطيع القيام بذلك الآن ؟ .

ـ هيا لنر .

ـ وعلى هذه الطاولة ؟ . مشيراً إلى طاولة سفرة كبيرة .

ـ نعم يمكنك .

فجأة تحول هذا الطفل إلى قرد صغير راح يقفز متأرجحاً من طاولة إلى أخرى واستمر بذلك على الرغم من تحذيرات نوري وطلبه بالتوقف كي لايسبب أية أذية على موجودات المخزن .

رفع يديه إلى الأعلى ثم قفز قفزة بهلوانية وبعدها وضع يديه على الطاولة منتصباً وقدميه في الهواء وهكذا راح يسير على يديه .

أما جموع المحتشدين خارجاً ، فحدث ولاحرج إذ وقف الجميع مشدوهاً مما يرى . البعض فغر فاه متعجباً وآخر ألصق أنفه ضاغطاً على الزجاج ومن ثم راحوا يقهقهون عالياً مستمتعين بما يشاهدونه .

وبعد أن سار على يديه طويلاً محركاً قدميه بصورة بهلوانية قفز على الطاولة ثلاث قفزات متعاكسة ومن ثم الرابعة واستوى واقفاً على الأرض .

لاقت هذه الحركات البهلوانية استحسان الواقفين أمام المخزن الذين صفقوا له طويلاً .

ـ ماذا يعني ، وهل تعتبر ماتقوم بها مهارة ؟ قال نوري مستخفاً بمواهب سلو .

ـ نعم ، لدي حركات عديدة ، إذا كنت راغباً بمشاهدتها أعرضها عليك بكل سرور .

ـ هيا أرني .

صعد سلو على الطاولة ثانية وقفز ثلاث قفزات أمامية وثلاثاً أخرى خلفية وبعد هذه القفزات البهلوانية الصعبة حتى على لاعبي الجمباز وقف على الطاولة .

ازداد عدد الواقفين خلف الواجهة الزجاجية مما زاد من

حماس سلو ، لذلك استطاع أن يحني ظهره إلى الخلف حتى لامست يداه سطح الطاولة وبعدها أبعد رجليه عن بعضهما بمهارة فائقة وحشر رأسه بينهما ومن ثم رفع يديه عالياً ، عرض فني وصعب ، وبهذه الحركة استطاع أن يقلد الضفدع ليس شكلاً فحسب بل راح يصدر نقيقاً تشعر وكأنه نقيق الضفدع .

سُرَّ نوري لهذا العرض كثيراً .

ـ انزل من هناك ، جازاك الله خيراً ياسلو .

عدد الواقفين مازال في ازدياد لدرجة أنهم باتوا يهددون زجاج الواجهة بالكسر من شدة الضغط نزل سلو من على الطاولة قائلاً :

ـ هل تود أن ترى شيئاً آخر .

ـ وهل لديك أيضاً . ؟

ـ أوهوه ، لدي الكثير . ! ! !

ـ هيا إذاً لنر .

ملأ كأساً من الماء وأمسكه بإبهام وسبابة اليد اليمنى وثبته على رأسه وبعد ذلك قلب الكأس قلبه دون أن يسقط منه قطرة ماء واحدة .

ـ هل لديك سيكارة ياأخي . قال سلو .

أخرج نوري سيكارة من علبة تبغه ومدها له . بعد أن أشعلها .

أمسك سلو السيجارة وقال :

ـ إفتح عينيك جيداً ياأخي . . .

وضعها في فمه قبل أن يكمل جملته . وهكذا راح يحرك

السيجارة بشفتيه ولسانه مرة جاعلاً الجهة المشتعلة داخل فمه ومرة الطرف الآخر وبعد ذلك ثبتها بشكل مقلوب إذ جعل الطرف المشتعل في الداخل ينفث دخاناً كثيفاً من الفلتر .

أعجب نوري كثيراً مما قدمه سلو دون أن يظهر ذلك ، لذا قال له هل لديك ماهو أصعب من ذلك ؟

ـ هل لديك خمسون ليرة معدنية ؟

أخرج نوري من جيبه قطعة معدنية ذات الخمسين ليرة وناولها لسلو .

وضع سلو القطعة المعدنية بين إبهام وسبابة يده اليمنى وقال افتح عينيك جيداً :

هوب وفجأة !

أين النقود ؟ .

صرخ نوري مستغرباً .

ـ ولك أين ؟ .

أجابه سلو أعطني واحدة أخرى لأقول لك أين هي .

أخرج نوري من جيبه قطعة أخرى . وقبل أن يقول له افتح عينيك كانت القطعة الثانية مختفية أيضاً .

وهنا صرخ نوري فرحاً .

ـ لقد قبلتك للعمل لدي ، كم تريد أجرتك ؟

ـ انتفض سلو فرحاً مما سمع .

ـ لاأدري ، كم تدفع لي ؟

أجابه نوري .

- حسناً ، أطعمك مقابل عملك .

- حسناً ، قبلت . أجابه سلو .

هكذا بدأ سلو العمل لدى نوري في مخزن بيع الموبيليا .

اشترى نوري له حذاء وزوج جوارب وسروالاً وبعض الملابس الجديدة كذلك أعطاه بعض النقود .

- إننا لانخدع أحداً .

قلب الورقة وظهرت بنت الكبة .

هيا ثانية افتح عينيك جيداً .

حاول نوري مراراً معرفة الورقة التي تمثل الشاب البسطوني لكن عبثاً ، ومع ذلك فقد رفض سلو أن يأخذ ماخسره نوري . طلب نوري منه قائلاً :

- علمني

- أعلمك مقابل ألف ليرة .

أخرج نوري من جيبه المبلغ المطلوب ودفعه لسلو وقام هو بدوره بتعليمه ، وبالفعل لم يمض النهار وإلا قد تعلم جيداً تنفيذ تلك اللعبة بشكل جيد .

عروض سلو لها أول وليس لها آخر ، إذ أنه يقدم كل يوم عرضاً جديداً .

وذات صباح دخل سلو المخزن وابتلع حزمة من الخيطان .

دهش نوري مما رأى .

- ولك ياسلو ، ماذا تفعل أجننت ؟

- لاتهتم ، سأخرجهم حالاً .

فتح فمه جيداً وبعدما تيقن نوري من عدم وجودها في فم سلو . مد إصبعه في فتحة أنفه وقام بسحب الخيطان . رويداً رويداً ، بالفعل نفس الحزمة التي ابتلعها .

اندهش نوري كثيراً لدرجة أن عينيه كانتا ستخرجان من محجريهما .

هيا أعدها ثانية .

بالفعل قام سلو بابتلاع الخيطان ثانية ، وثانية أيضاً راح يسحبها من فتحة أنفه .

ـ ياسلو بك ، ألا تعلمني هذه النمرة أيضاً .

ـ لم لا ؟ ! . . هيا ادفع ألف ليرة .

ومثل كل مرة دفع نوري المبلغ . وهكذا أمضيا يومهما وسلو يعلم نوري تلك الحركة . استطاع نوري إملاء فراغه داخل المخزن .

ذات يوم وبينما نوري يلج المخزن تناهى إلى مسامعه صوت كلارنيت بديع . ظن أن مصدر الصوت من المذياع . إلا أنه أيقن عكس ذلك عندما تأكد من عدم تشغيل المذياع . راح يبحث عن مصدر الصوت ، فوجيء بسلو متمدداً على الأرض واضعاً كلتي يديه على أنفه وهو ينفخ من أنفه مصدراً صوتاً أجمل من صوت الكلارنيت الطبيعي .

ـ ماذا تفعل ياسلو ؟

ـ اعزف مقطوعة غرناطة .

ـ ولكن كيف ؟ .

ـ هكذا .

ـ إذا علمني .

ـ تدفع ألف ليرة .

ومثل كل مرة حاول سلو تعليم نوري العزف على الكلارنيت . إلا أنه لم يستطع وبأي شكل من الأشكال تعليمه إصدار ذاك الصوت من أنفه . و عند المساء أعاد له المبلغ .

سأله نوري عن سبب إعادة المبلغ أجابه سلو :

ـ لقد اتفقنا على هذا المبلغ مقابل تعليمك العزف ، إلا أنك لم تتعلم ، لذلك لايجوز أخذ النقود .

لكنه وخلال ثلاثة أيام استطاع نوري التعلم على العزف .

توالت الأيام وتعددت الألعاب التي أتقنها نوري حتى صوت الطبلة استطاع تقليده .

ذات يوم من الأسبوع الثاني لم يكن سلو كعهده ، بدت عليه آثار التعب والإرهاق حتى ابتسامته اختفت ووجهه البشوش بان عليه الاكتئاب .

استغرب نوري كثيراً :

ـ مابك ، هل أنت مريض ؟

ـ لا ، لاشيء .

ـ هل أنهيت جميع عروضك ؟

ـ لا ، بقي لدي الأخير لكنه كبير ، لذلك أفكر هل أقدمه أم لا .

ـ إذاً أرنا مالديك .

ـ لاياأخي ، لتعفني من تقديمه .

ـ لِم ياسلو ؟

ـ لاأريد . . .

لم يستسلم نوري لإصرار سلو في عدم تقديم العرض بل تابع الإلحاح عليه .

إلا أن سلو كان دائم التفكير مشتت الذهن حتى وجهه الأسمر ازداد سواداً وشحوباً ، عند المساء عاتبه نوري قائلاً :

ـ لقد زعلت منك ياسلو . لم ترني العرض الأخير .

ـ لاياأخي لاأريد ازعاجك . لقد أخذت منك النقود بما فيه الكفاية .

بعد عشر ـ خمس عشرة دقيقة اقترب من نوري قائلاً

ـ هل أستطيع الذهاب إلى البيت ؟ .

وافق نوري على منحه الإجازة بالخروج .

عند المساء ارتدى نوري جاكيته ، مد يده إلى الجيب الداخلي لسبب ما وإذا بمحفظة نقوده ليست موجودة . مد يده إلى جيب آخر وإذا بالمحفظة هناك . داخل المحفظة عشرة آلاف ليرة مع الهوية الشخصية وبعض الوثائق وهنا تذكر نوري رفض سلو تقديم عرضه الأخير . وعرف أنها فعلة سلو لكنه ليس مذنباً لأنه قدم هذا العرض تحت إصراره وبناء على رغبته ومع ذلك كان رؤوفاً إذ أنه لم يأخذ الهوية الشخصية ولاحتى العشرة آلاف ليرة .

لم يعد سلو إلى مخزن الموبيليا ثانية لذلك كان نوري يجيب على أسئلة الزبائن :

ـ لقد دفعت لسلو عن كل عرض تعلمته ألف ليرة إلا العرض الأخير فقد كان مجاناً .

الفهرس

